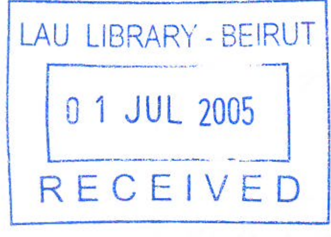

الدكتورة فاطمة قدورة الشامي
الحضارة البيزنطية
دار النهضة العربية

الدكتورة
فاطمة قدورة الشامي

الحضارة البيزنطية

(٣٢٣ ــ ١٤٥٣)





رقم الكتاب : 19132
اسم الكتاب : الحضارة البيزنطية
المؤلف : د. فاطمة قدورة الشامي
الموضوع : تاريخ
رقم الطبعة : الأولى
سنة الطبع : 2002 م. 1423 هـ
القياس : 15 × 22
عدد الصفحات : 109

منشورات : دار النهضة العربية
بيروت – لبنان

الزيدانية – بناية كريدية – الطابق الثاني
تلفون : +961-1-743166/743167/736093
فاكس : +961-1-735295/736071
ص ب : 11-0749 رياض الصلح
بيروت 072060 11 – لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

إهداء

إلى روح العلاّمة الدكتور السيد الباز العريني أستاذ التاريخ والحضارة البيزنطية

أهدي هذه الخلاصة من قبس عطاءه المجّل في ميدان المعرفة والعلم.

فاطمة قدورة الشامي

٢٠٠٢/٤/٢٠

المقدمـــــــــــــــة

التاريخ له وقفات مع الدول التي تأبى الزوال... تصارع.. تكافح.. تضعف أحياناً وتعود لتثبت من جديد عنفوانها وجبروتها... تلك قصة الحضارة في بيزنطة، أمواجاً متلاطمة تعلو ثم تتلاشى مع تراب الأزمنة التاريخية فتندثر، ولكن عبر الأزمنة تظهر إشعاعات تعيد إلى ذاكرة زماننا عظمة الحضارة البيزنطية.

إن جانب الأهمية في إعادة تسليط الضوء على الحضارة البيزنطية يكمن في ديمومة الدولة البيزنطية لفترة زمنية امتدت من ٣٣٠ ميلادي إلى سنة ١٤٥٣ ميلادي أي ما يقارب الإحدى عشر قرناً ونصف من الزمان، هذه الحضارة استمدت كينونتها من الحضارة الهللينية، (اليونانية - الرومانية)، وتأثرت بالحضارة العربية الإسلامية... فباتت الحضارة البيزنطية شرقية أكثر من لاتينية غربية.

لا شك بأن احتضان بيزنطة للعقيدة المسيحية بعد القضاء على الوثنية، أعطاها تلك المكانة الدينية المرموقة التي جعلتها نقطة تجاذب جدلي لاهوتي - فلسفي حول طبيعة المسيح إضافة إلى مسألة الأيقونات وعبادة الصور المقدسة، فانتشرت المذاهب الدينية المسيحية ما بين أريوسية ونسطورية ومونوثلستية ومونوفيزتيه إلى

ظهور مذهب البيالصة والبوجومالية، وتبع ذلك السجال الديني أيضاً النزاع على السيطرة الدينية المسكونية في قالب جيوسياسي ما بين القسطنطينية وروما أدى إلى انفصال بعض الأقاليم في أوروبا عن بيزنطة كنتيجة للصراع الديني والسياسي بين القسطنطنية وبابوية روما.

ولا شك أن موقع بيزنطة أضفى على الأمبرطورية مكانة جغرافية أثرت إيجاباً على تجارتها وأوضاعها الاقتصادية. إضافة إلى مدينة القسطنطينية التي أعطت للأمبرطورية المعلم الحضاري المميز آنذاك.

وأهم ما يمكن أن نُسلط الضوء عليه في حديثنا عن الحضارة البيزنطية الفكر التشريعي القانوني لدى بيزنطة إضافة إلى دقة التنظيمات العسكرية والإدارية..

وتظهر عظمة بيزنطية باهتمامها بالحركة العلمية واحتضانها للفن والذي تجلى بعظمة قصورها وأبهة وفخامة كنائسها.

وتتجلى أبهى مظاهر الحضارة في الخدمات الاجتماعية التي تقدم للمواطن البيزنطي وإنشاء المستشفيات والملاجئ ودور الأيتام، ولا ننسى صفة العالمية التي ظهرت في المجتمع البيزنطي.

ولا بد من التوقف عند المفصل المهم لتلك الحضارة وأعني بذلك الرخاء الاقتصادي والذي أتى نتيجة التنظيمات التشريعية والمالية والإدارية والعسكرية لحماية تجارة بيزنطة العالمية.

إن أهمية دراسة وتسليط الضوء على الحضارة البيزنطية في كون بيزنطة مجاورة للدولة العربية الإسلامية وهي في حالة احتكاك دائم يظهر بتتابع الحروب فيما بينهما وهذا الواقع يدعونا إلى معرفة طبيعة الأنظمة العسكرية والاجتماعية والتشريعية لبيزنطة والتغيرات التي كانت تطرأ على أوضاعها الداخلية والخارجية.

إن الهدف من دراسي هذه إعطاء لمحة متواضعة ومختصرة قدر الإمكان. لإظهار عظمة تلك الحضارة والأسباب التي أدت إلى إندثارها مع تجنبي للاستطراد نظراً لوفرة المعلومات ولعمق التفاعل والعلاقات مع المسلمين ومع الغرب الأوروبي والشعوب السلافية والروسية والبلغارية...

د. فاطمة قـدورة

بيروت ٢٠٠٢/٤/٦

الحضارة البيزنطية

١٤٥٣-٣٢٣

الامبراطورية البيزنطية سماها العرب دولة الروم وعند الفرنجة دولة الاغريق أو الدولة الرومانية الشرقية.

والمجتمع البيزنطي أحد مجتمعات ثلاثة: المجتمع المسيحي الشرقي والمجتمع الهلليني والمجتمع المسيحي الغربي (اللاتين - التوتونية - جماعات البربر) مما أدى إلى انصهار الحضارة البيزنطية ما بين البوتقة الاغريقية إلى السياسية الرومانية فالعقيدة المسيحية. فالحضارة البيزنطية إذن هي امتداد للحضارة الرومانية الآفله.

والواقع أن المركز الاستراتيجي الذي تربعت عليه بيزنطية ما بين الشرق والغرب، دعاها إلى تبوأ أعلى مراكز الثقافة والفكر.

لقد عاشت بيزنطة قروناً طويلة لا ينازع سلطانها منازع حتى ظهرت الدعوة الاسلامية، فانتزع المسلمون سوريا ومصر والشمال الافريقي، واستمرت العلاقة بينهما حروب (صوافي - شواتي) وهدنة وسفارات وتجارات وتبادل أسرى.

وما لبثت بيزنطة أن عاجلها القدر بالشعوب البلغارية وأيضاً الآفار والصقالبة من الغرب والشمال إضافة إلى قبائل الروس. وتعرضت بيزنطة لإحتلال الفرنجة اللاتين أثناء الحملات الصليبية لاسترداد بيت المقدس. وكانت نهاية بيزنطة على يد الاتراك السلاجقة والأتراك العثمانيين...

والواقع أن استمرار الحضارة البيزنطية تلك القرون الطويلة يعود إلى قوة تنظيماتها التشريعية والإدارية والعسكرية والتجارية، إضافة إلى التمسك بالعقيدة المسيحية بالرغم من الانقسامات الدينية والنحل فلقد ظلت تحمل لواء المسيحية، وقدمت لنا بيزنطة نماذج حضارية ظهرت أيضاً في مجالات الثقافة والفنون والتنظيم لحاضرة بيزنطة القسطنطينية إضافة إلى هذه العالمية في الانصهار السكاني..

<u>القسطنطينية</u>

احتفل سنة ٣٣٠ بافتتاح العاصمة الجديدة للدولة البيزنطية، ولقد احتلت القسطنطينية موقعاً عظيم الأهمية وذلك بوقوعها عند التقاء القارتين أوروبا وآسيا، إذ أنها تحكمت في المواصلات بين أوروبا وآسيا والطرق البحرية.

أخذت العاصمة الجديدة بأسباب الرقي، على حين أن روما طاولها الانحطاط ففقدت أهميتها. والواقع أن المدينة الجديدة جرى تخطيطها على نسقِ روما ونموذجها.

ولقد باتت القسطنطينية العاصمة الإدارية للأمبراطورية بشقيها الشرقي والغربي، وصار لسكان القسطنطينية الحق في الحصول مجاناً على الخبز والنبيذ والزيت ومشاهدة الملاهي. وقامت العمائر الضخمة، وشيد قسطنطين العديد من الكنائس فغلب على القسنطنيطية الطابع المسيحي.

ولقد بذل قسطنطين جهده لتأكيد <u>روحها الهللينية</u> وبأن يجعلها من مراكز الفن والعلم، ولقد جمعت القسطنطينية بين الوثنية والمسيحية فمثلاً أقام قسطنطين تمثالاً لأبوللون ولإلهة الحظ. والواقع أن المسيحية تعتبر <u>عقيدة شرقية</u>، والفلسفة الأغريقية صاغتها بقالب تتــقبله أوروبا، ونلاحظ أن القسطنطينية تقدم لنا نموذجاً للانصهار

بين التقاليد الأغريقية والرومانية والمسيحية. وحتى السكان يمثلون تمازج تلك الحضارات..

يوجد الاختلاط بين السكان في القسطنطينية، حيث أجهزة الدولة مركزه هناك. أضف إلى ذلك أن نجم روماً قد بدأ في الأفول. ولم يكن ينافسها إلا إنطاكية والاسكندرية. ورغم ذلك بقيت مدينة عظمي حيث بلغ عدد سكان القسطنطينية حوالي المليون نسمة، وأخذت تتناقص مع الفتح اللاتيني، وكانت الأسوار تحيط بها، وتخترقها إثنا عشر بوابة محروسة، ويوجد فيها العديد من المدن إضافة إلى البساتين، وفيها التلال السبعة والقصر الكبير وكنيسة آية صوفيا وميدان السباق وكنيسة القديس سرجيوس، وهناك أبراج شُـقت فيها فتحات تسمح بوجود مرافئ صناعية صغيرة ترسو فيها السفن، وتتكدس المنازل حول المدن، ويوجد على الشاطئ حي الاستديوم والدير والمستودعات والمراسي، وكانت البيوت تبنى على أعمدة فوق المياه، وكان هناك بوابات تفتح على أحياء مزدحمة بالسكان، ويوجد في القسطنطينية حي القلعة في النهاية الشرقية وحي بلاخرناي في الغرب حيث القصور الأمبراطورية وكنيسة القداسة، إضافة إلى المراكز التجارية ومؤسسات التجار وخاصة تجار ايطاليا، وكان أجمل الأحياء هي الحوانيت التي تقع داخل المدينة، وهناك الشارع الأوسط يمر فيه سوقين ويوجد فيهما تماثيل وسمي السوق الأول سوق قسطنطين والثاني سوق تيودوسيوس ويتفرع منه

شارعين رئيسيين يتجه أحدهما إل سوق الثور وأركاديوس والاستوديوم والبوابة الذهبية وبوابة بيجاني. والشارع الثاني يمر أمام كنيسة الرسل ثم إلى بلاخرناي والبوابة الخاريسانية. ونجد في القسطنطينية تجار الصاغة والفضة والبزازون وصنّاع الأثاث ودكاكين قرب القصر حيث المركز التجاري لسوق الحرير المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت تُضاء ليلاً. ولم يكن هناك أحياء مخصصة للأرستقراطية إنما كانت القصور والأكواخ توجد إلى جانب بعضها بعضاً، وكانت بيوت الأغنياء تبنى على الطريقة الرومانية المؤلفة من طابقين وهي مقفلة من الخارج وتطل على فناء في الداخل مزيناً بفسقية. أما بيوت الفقراء فلها شرفات تطل على الخارج حيث تراقب النساء جيرانها. وفيما بعد صار هناك تحديد لعرض الشارع ولطريقة البناء. وازداد الإهتمام بتصريف المياه حيث تتسرب إلى البحر بعناية. ولا يجوز لأي مواطن أن يدفن داخل المدينة إلا الامبراطور. وكان هنا رعاية للصحة من جانب الأطباء، وانتشرت الحدائق في القسطنطينية وحول القصر الكبير، وشيد في القسطنطينية قصر البطريق، و هناك كنيسة عند كل ناحية إضافة إلى دور العبادة والأديرة والكهوف فضلاً عن المستشفيات والملاجئ للأيتام ودور الضيافة والحمامات العامة وميدان السباق العظيم.

إلى جانب القسطنطينية هناك الضواحي، وفيها مدن مثل خلقدونية أو غلاطه، إضافة إلى مدن تجارية أمثال هيرون. وهناك

قرى مبنية على البوسفور ومنتجعات سكنية يتوافد إليها الأثرياء في فصل الصيف، ويوجد في القسطنطينية القصر الكبير حيث نصب تمثال ضخم لثور يقاتل أسداً. وفيه مجموعة من المباني وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن.

ويحتوي القصر الكبير على سبائك من الذهب والجواهر والمواد الثمينة وبه ضراغم ذهبية تزأر وطيور عسجدية تشدو. وجمعت في القصر بعض آثار القديسين ابتغاء وضعه موضع القداسة. وإلى جانب القصر أقيمت منارة للسفن لتهديها أثناء دخولها البوسفور وإلى جواره كنيسة للعذراء مريم والتي حوت العديد من الذخائر الثمينة التي اقتسمها الصليبيون أثناء دخولهم القسطنطينية. ومن داخل القصر الكبير تدار وتُحكم الأمبراطورية باسرها. فإن التحكم في القصر يعني التحكم بالأمبراطورية. ويوجد في القصر أيضاً دور الحريم، وأيضاً أغنى دار تجارية للحرير، لأن تجارة الحرير كانت محتكرة من قبل الأمبراطور ويوجد في أقسام الحريم الأنوال التي تنسج عليها أثمن أنواع المنسوجات، إضافة إلى مكاتب للموظفين وحاشية الأمبراطور.

وإلى جوار القصر يوجد مقر بلاخرناي، وهو رائع البناء بما حوى من فسيفساء وتصاوير على الجدران ووشي ديباج وأيضاً يوجد ميدان السباق وهو يتسع لحوالي الأربعين ألف شخصٍ، وبجانبه

الاصطبلات لجميع الحيوانات التي تعرض على النظارة، وبيوت لخدم السيرك. واشتهر من الألعاب الصراع مع الحيوانات وسباق العربات، وكان الأمبراطور والأمبراطورة يحضران السرك، وصار ميدان السباق هو المكان الذي يتخاطب فيه الامبراطور مباشرة مع شعبه، ويُنادى بالأمبراطور أيضاً في الميدان. وفي السرك صار يسترعي انتباه الناس الفارس الذي يركض على صهوة جواده واقفاً، ويلعب بالسيف، وكان إدخال الفروسية الغربية مع مجيء الصليبيين سبباً في جعل السرك مسرحاً لمداورات الفرسان وإظهار المهارة في ركوب الخيل ولعب الصوالج والأكر (البولو).

المجتمع البيزنطي

السكان:

تغيرت ظروف الحياة خلال الأحد عشر قرناً من تاريخ بيزنطة، ولكن المواطن البيزنطي ظلّ يعتقد بأنه المتحضر الذي ترجع جذوره إلى روما الامبراطورية، وبأنه الوريث لكل حضارة الأغريق، ما بين لغة لاتينية ويونانية. أضف إلى ذلك أن عناصر السكان كانت تتغير، فبيزنطه شديدة الاختلاط ويطلق عليها لقب المسكونيه (العالميه) وتضم العالم المتحضر بأكمله، ولم يكن هناك مفهوماً للقومية وعندما استعادت الامبرطورية الرومانية تماسكها لم تقم على القومية، بل على العقيدة الصحيحة بعد القرن الخامس، وعلى اللغة اليونانية في القرن السابع وعناصر السكان مختلفة ما بين اغريقي وآسيوي والليري، وحصل التزاوج بين الحاميين في مصر والساميين في سوريا. إذن سكان الامبرواطورية البيزنطية ينتمون إلى كل قبيلة وإلى كل أصل، وإن كانت الأسر النبيلة تحب أن تحتفظ بأصلها الروماني. وأضف إلى ذلك نوعية السكان أيضاً سكان آسيا الصغرى من الفريجيين والحثيين والفرس والصقالبه والأرمن. والصقالبه بعد غزواتهم أحدثوا تأثيراً في شبه الجزيرة اليونانية وأيضاً في الأمبرواطورية بسبب التزاوج مما أوصلهم إلى أعلى

المراكز في بيزنطه، وبعد فتح بلغاريا زادت الأرستقراطية البيزنطية اختلاطاً بسبب المصاهرة مع الأسرة المالكة البلغارية والعائلات النبيلة، فذاب الصقالبة مع هذا التزاوج ومنهم من انسحب إلى ولايات البلقان السلافية.

أما الأرمن فلقد عرف عنهم الهجرة كأفراد ومغامرين، وشعبهم كثير التناسل، وكانوا يدفعون أولادهم إلى طلب السلطان والثروة والقوة، فمنهم نارسيس القائد البيزنطي لجستـــنيان، ولكن تفوقهم ظهر في القرنين التاسع والعاشر، فليو الخامس كان أرمنياً وباسيل الأول وحنا جيمسكي من نبلاء الأرمن، ولطالما كان منهم الأمبراطور والبطريق والقائد في زمن واحد إذن كانت الأمبراطورية البيزنطية آنذاك أرمنية، وكان من الأرمن مهرة الصناع والتجار في كل مدن العالم. وكان على الأرمني عندما يهاجر أن يعتنق مذهب الدولة. رغم عدم اطمئنان الدولة إلى من يغير عقيدته، والواقع أن فتوحات السلاجقة قضى على اتصال أرمينيا ببيزنطه.

لا شك أن أغلب هؤلاء الأرمن أو الفرنجة كانوا يعودون إلى بلادهم، ولم يكن البيزنطي يعرف التحزب العنصري، فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية واستطاع التحدث باليونانية يصبح بمثابة الأخ في المواطنة، والإحتقار للزنادقة. وكل من يعتنق الأرثوذكسية بامكانه الزواج من بيزنطية، ولقد تزوج البيزنطيات من فرنجة

وعرب، وعرف من زوجات الأباطرة امرأتان من الخزر وأميرات الغرب. ولكن ضعف الأمبراطورية بسبب الجمهوريات الإيطالية جعلت الغرب مكروهاً لدى أهل القسطنطينية. ويظهر أن اللعنة كانت منصبة على الحضارة الغربية لا على الدم الغريب الأجنبي، فالصقالبه احتضنوا الحضارة البيزنطية فكان الكره لهم من قبل الغرب في الحرب فقط، والترك الذين تعلموا الحضارة البيزنطية مقبولين لدى أهل بيزنطه أكثر من شعوب أوروبا.

بالنسبة لليهود لم يكن عددهم كثيراً وتحدثوا اللغة اليونانية وهناك جاليات تواجدت في كل مدينة بيزنطية. ولكنهم لم يكونوا أهم من الأرمن والروم. وكان يفرض عليهم ضرائب ويتعرضون للإضطهاد بين الحين والآخر، فإذا اعتنقوا المسيحية انضموا إلى الطبقة الأرستقراطية، فشقيقة أيرينا تزوجت من يهودي.

الطبقة الأرستقراطية:

قُسّم المجتمع البيزنطي إلى عدة طبقات ولقد عاشت في المدينة فامتلكت الدور فيها وفي الريف، وكان النبلاء يشغلون مناصب مهمة في الدولة، وهم حاشية الأمبراطور الذين تورطوا في المؤمرات، فإذا أقبل العيد مر الرجال صفاً أمام الأمبراطور، والنساء أمام الأمبراطورة، وتحولت قصورهم إلى بلاطات صغيرة، منشئين

حولهم حلقة من المحاسيب والرهبان والشعراء وقد فقدت العائلات الأرستقراطية ثرواتها في القرن السابع بسبب طغيان بعض الأباطرة، فباتت الأرض لا تشكل مجالاً للثروة، ولكن مع تغير الشرائع فيما يختص بامتلاك الأراضي ظهرت عائلات تملكت مزارع هائلة بآسيا الصغرى، من هذه العائلات آل فوقاس وآل كومنيوس وأيضاً آل دوقاس حازوا مزارع في أوروبا وخاصة في بلغاريا واليونان.

ويصعب تتبع أنساب العائلات الأرستقراتطية لأنه ربما بسبب الغطرسة كان الأطفال ينسبون إلى أمهاتهم لا إلى آبائهم.

وكانت هذه العائلات تعيش عيشة العشائر، تعمل معاً وتعيش معاً. فأسرة كومكنين كانت كلها تعمل من أجل الكسيوس أقدر الأخوة وإن لم يكن الأكبر سناً. وإذا ما حصلت أية أزمة في البلاد فحياة هذه الأسر تصاب بالنكسة، وربما هرب أفراد الأسر النبيلة من البلاد، بينما تتوجه النساء وهن أشد المتآمرات إلى الأديرة.

والواقع أن ثروة هذه العائلات كانت تجلب لهم المشاكل، فنقفورفوقاس وضع النبلاء تحت الاسترابه (المراقبة الدقيقة) مما كان يدفعهم للهرب إلى الأديرة.

والثراء في بيزنطه واسع. فالقنصل تصل تعويضاته إلى التسعين ألف من الجنيهات. فوالدة الأمبراطور تيودور كانت ثرية وسخية، وصديقة الأمبراطور باسيل الأول كانت تملك شبه جزيرة

البلوبونيز. ووصل عدد خدم الأمبراطور إلى الثلاثة آلاف إنسان، وصداق النساء إلى تسعة ملايين من الفرنكات الذهبية والقصور أيضاً كانت فخمة جداً، فمثلاً ما يملكه فيلارتيس وهو في الأصل مزارع من أموال وماشية تصل إلى إثني عشر ألفاً من الغنم وستمائة ثور وثمانمائة حصان إضافة إلى الأرقاء. ولوقاس نوتاراس كان يمتلك ثلاثاً وخمسون وأربع مئة وألف من قناطير الذهب. إذن الأرستقارطية كانت تمثل الثروة في بيزنطه ومن يريد أن يصبح أرستقراطياً عليه أن يمتلك الأراضي ويشتري لقباً ليتمكن من إدخال أولاده إلى مجلس الشيوخ، وأفضل طريقة أن يقوم بالخدمة العامة في الجندية فيملك الأرض ويمنح هبات من المزارع كما فعل آل فوقاس، أو أن يهتم الأمبراطور بأحد رجال السياسة ويعمل على إيصاله إلى مراتب عالية في الدولة.

أما الطرق المحترمه للوصول إلى المراتب العليا فنادرة، وربما أعيد إلى الفقر بدعوى أنه خالف قوانين الشفعه، وكان الأباطرة يمنعون توسع المزارع التي كانت تقدم إلى الجنود خوفاً من شرائها من جانب الأغنياء وبالتالي تتحول إلى اقطاع.

طبقة رجال الدين:

إن الإحساس الديني ميزة العصور الوسطى، وكان التدين في بينزنطة على جانب من الالتزام بعكس الغرب، فبيزنطه أمبراطورية

ذات طابع لاهوتي. وكان الهدف من أبهة البلاط الأمبراطوري رفع قدر وكيل الله في الأرض. أما الحفلات والكرنفالات التي تملأ السنة البيزنطية، فإنها وإن أتاحت للناس مباهج دنيوية إلا أنها كانت كلها أشياء عارضة في الطقوس والصلوات. وقد ضاع الإتجاه الوثني الذي يدفع الإنسان إلى المسرة واللذة. وإن إحساساً سامياً بالديانة غطى مباهج الحياة، ووجد الشعراء مجالهم في التراتيل الدينية وصوغ الأناشيد في صفه جلال الله. وكانت بيزنطه ما بين رافض للطقوس أو لمنح الرسل صفة قديس.

والواقع أن الأصل في التدين هو طاعة الله والتخلي عن ملذات الحياة واعداد النفس للأبدية بالتأمل وإذلال الجسد. ومن ثمة ازدحمت الأديرة بالرجال والنساء، فبالرغم من الحياة العملية والسياسية فإن السلام في الأديرة وحياة الأديرة لم تكن صارمة، فالرهبان تتلقى الاحترام من الناس وعشرة الرهبان من نعمة الله على البشر. فالأمبراطور الكسيوس كان يصحب معه في حروبه راهباً إرضاء لوالدته، والنساك لهم توقير واحترام أكثر من الناس ومنهم القديسين المنكرين لذواتهم. فلوقا المقدس كان الحاكم العسكري في اليونان لا ينفك يزوره ويلتمس نصحيته والعمل بها. والقديس نيلوس تسلط على إقليم كالابريا وله نفوذ على روما... والواقع أن القديسين كان لهم مكانة عظيمة لدى الأباطرة وعامة الناس وأكابر

القوم. وكان هناك ناسكات أيضاً. وهؤلاء القديسين كان لهم قدرة على الشفاء من الأمراض ومن هؤلاء القديسين لوقا وباسيليوس الأصغر.

ولكن بعد القرن العاشر صار هناك ندرة في القديسين. والواقع أن العيش في الأديرة كان يستهوي الناس حتى أن أميرات آل كومنين كن يرغبن بالانسحاب إلى الدير. كذلك الأرامل والأمبراطورة هلينا إختارت الدير.

وكان بعض الرجال يتوقون إلى تقسيم حياتهم بين العالم المادي والعلوي عن طريق النذر والزهادة فنجد نقفورفوقاس يمتنع عن أكل اللحم ويلبس لباساً عليه أدران مما يكفل التوقير وجلب الاشمئزاز من جانب السفير الإيطالي، ولكن خرقه لنذره أضاع حب أهل القسطنطينية له.

ومما كان يزيد في حب الأباطرة لهؤلاء الرهبان اهتمامهم بعلم اللاهوت. فلا شك أن هذه النزعة الدينية تبعها الكثير من الخزعبلات والآثار المقدسة. فهرقل أضاف الكثير إلى الآثار المقدسة كأدوات آلام الصلب المقدسة، صوناً لها من الفرس والعرب بعد سقوط بيت المقدس. وصارت الجثث تتوافد إلى القسطنطينية كجثة القديس دانيال واندراوس ولوقا وأشعيا ومريم المجدلية

وسواهم. وجاء الأمبراطور يوحنا جمسكي بنعلي السيد المسيح ونتيجة هذه الآثار توافد الحجاج من كل أصقاع العالم.

والواقع أن النزاع على عبادة الصور يدل على حب بيزنطه لذلك، إضافة إلى أن الآثار الدينية كانت ذات قيمة عملية عالية فكان الكثير من النساك والرهبان لهم قدرة على الشفاء من الأمراض، ونلاحظ أن الكنائس استعادت نفس الخصائص النافعة التي كانت تمتاز بها المعابد الوثنية، فصار النساء والرجال يهرعون إلى الكنائس والقديسين بوصفهم الأطباء المجّانيين، والقديسون يحمون المدينة من العدو كمدينة سالونيك، والعذراء كانت تحمي القسطنطينية من غزو الروس.

وكان للخرافات والخزعبلات الكثير من الصور القاتمة، فالشياطين كانوا في زعمهم في كل مكان. فجستنينان باع روحه وهو طول الليل يجوس في قصره، وكان البطريق يوحنا النحوي منغمساً بالشعوذه، ويعقد جلسات مع الراهبات. أما البطريق ميخائيل سيكيدتيس فإنه يستطيع أن يجعل الأشياء تختفي عن النواظر وله قدرة على صنع الألاعيب والمقالب بمساعدة الأبالسة. وكانت النيازك والكسوف تتنبأ بالكوارث.

وعرف عن الرهبان قدرتهم على التنجيم والتنبؤ بالمستقبل أو معرفة من سيصل إلى العرش. واعتقد الرهبان بالقرين وإن الجمادات ترتبط بحياة الإنسان، وهكذا أمر الإسكندر بأن يعنى بتمثال لخنزير بري من البرونز كان يعتبره قرينه الذي يرتبط به.

المرأة البيزنطية:

ظهرت أقسام للحريم في قصور النبلاء والقصر الأمبراطوري، وكانت النساء يشتركن في حياة الرجال، والفتيات اللواتي غير متزوجات كن يعشن عيشة الاعتزال، ولم يكن يرين أزواجهن حتى تقرر كل شؤون الزواج، ولكنهن لا يكدن يتزوجن حتى يستمتعن بمطلق الحرية. ويتسلطن على دائرة العائلة كلها. وكانت الأم تعامل بإحترام مهما صدر عنها من تصرفات.

فمثلاً ديجينيس أكرتياس إن أراد تناول طعامه في البيت يدق الخادم الجرس فيأتي هو وزوجته ثم ينتظر قدوم الأم ويقدم لها أحد الكراسي لتجلس.

وكانت المرأة تلعب دوراً هاماً في حياكة المؤامرات وخاصة في الطبقة الأرستقراطية، فلقد أجبرت زوجة قسطنطين بعد فشل ثورته وسمل عيناه على الانسحاب إلى مزارعها الريفية، إذن العقوبة كانت تقع على الزوج وتعفى الزوجة من ذلك. كما حدث أيضاً مع

زوجة بارداس فوقاس فبعد أن شاركت في الدفاع عن حض تيرايوم ضد جيوش الأمبراطور، ورغم فشل زوجها، فلم تلق أية عقوبة.

بالنسبة لأقسام الحريم في القصر الأمبراطوري. ففيها أقسام مخصصه للأمبراطورة وحاشيتها، وهي غرفات تحت سلطانها الخاص لا يستطيع الأمبراطور دخولها إلا بإذن منها، فعندما ماتت الأمبراطورة تيودورا سنة ٤٥٨ ودخل زوجها غرفتها فوجد البطريق انثيموس في إحدى غرفها وقد خبأته منذ إثني عشر عاماً، ومع أن قسم الحريم كانت تحت رعاية الخصيان ولا يجوز للرجال دخوله، فالأمبراطوره كانت تغادره متى شاءت وإذا كانت وصية على العرش تستطيع أن تستقبل وزراءها متى شاءت، وهي داخل القصر أقوى من الأمبراطور نفسه.

وكان زواج الأمبراطورة يتم عن طريق معرض العرائس، فيذهب مبعوثون إلى كافة أرجاء الأمبراطورية ليجمعوا البنات الجميلات الراقيات التعليم ليختار الأمبراطور منهن عروسه، ولطالما كانت الاعتبارات السياسية أو عاطفة عابرة تُعرِّف الأمبراطور على عروسه، فيستغني عن اللجوء إلى تلك الوسيلة، ولطالما لجأت ايرينا في زواج إبنها قسطنطين السادس إلى هذه الوسيلة.

طبقة الفقراء:

إن حياة الفقراء تتشابه في كل مكان وزمان، لأنها تعيش من أجل لقمة العيش، وكان فقراء القسطنطينية يعيشون في فقر شديد، وتزاحم أحياؤهم القذرة قصور الأغنياء، ولعلهم كانوا أحسن حالاً من فقراء معظم الشعوب، فالسرك مفتوح لهم مجاناً، وقد أوقف هرقل توزيع الخبز المجاني، وكانت الحكومة تزود من يعملون في خدمتها بالطعام المجاني، ويشرف الكويستور على إعطاء المعوزين عملاً نافعاً وذلك منعاً للبطالة. ولذلك لا يسمح لا حد دخول القسطنطينية إلا لأعمال مصرح بها. وانتشرت المستشفيات للشيوخ والعجزة يؤسسها في العادة الأمبراطور أو أحد الإشراف وتلحق بأحد أديرة الرجال أو النساء، وكانت الدولة تنشئ ملاجئ الأيتام لأطفال الفقراء. ويعتبر مدير ملاجئ الأيتام من الموظفين المهمين في الدولة. وتوضع تحت تصرفه مبالغ مالية ضخمة. واهتمت الكنائس في فترة عبادة الصور بإدارة دور الملاجئ. واهتم الكسيوس بإعادة بناء ملجأ في القصر الكبير. وكان ينسى همه وهو يراقب الأطفال...

والواقع أن وجود هذه المؤسسات الخيرية كان يقضي على الجوع ولا يبقى من الجوعى إلا العدد القليل، ولا شك أن ثورات السكان في المدينة كانت بدافع القضاء على حاكم ظالم أو على أجانب مكروهين، ولكنهم لم يفكروا مطلقاً في تغيير المجتمع.

طـــبـــقـــة الـــرقـــيـــق:

وفضلاً، عن الفقراء كان هناك عدد لا يُستهان به من الأرقاء. وفيما بعد سرعان ما شعر القوم بأن الاسترقاق للمسيحين من الأمور المعيبة. وإن لم يكن موالي الأرض بالمناطق الريفية أحسن حالاً من العبيد، وكان الأرقاء من أسرى العرب أو من السهوب أو الوثــنيين يعملون في المناجم وغيرها من أعمال الدولة الشاقة، ولقد ظهر شعور ضد الرق فقد منع تيودور الأديرة من استخدام الرقيق، وسن الكسيوس الأول التشريعات التي تبيح لهم أن يتزوجوا بملء حريتهم. ومع ذلك فإن يوستــنبانس كبير الأساقفة كان يملك عدداً كبيراً من العبيد. ولكنه أمر بإعتاقهم بعد موته، ولم يلبث قانون المدنية أن رفع أسعار الرقيق بشكل غير معقول ولكن بقي رقيق المنازل حتى القرن الرابع عشر، ولعل رقيق المنازل كان يعيش حياة إنسانية مريحة، أما رقيق الدولة فربما عوملوا معاملة الحيوانات.

الطبقة الوسطى:

هذه الطبقة تعيش مــتأرجحة بين الفقراء والنبلاء، وكان دقلديانوس يريد أن يجعل كل إنسان يتخذ حرفة أبيه. ولكن المجتمع لم يظل راكداً كما شاء دقلديانوس فإن كان للعائلة ابن يواصل مهنة أبيه فقد جاز لأخواته أن يلتحقوا بالكنيسة أو الجيش أو الخدمة المدنية فإن نجحوا فعندئذ يمنحون المال ويصبحون من ملاك الأراضي،

وبدأ يظهر فرع جديد من النبلاء، فلقد أصبح يوحنا مدير الملاجئ من وزراء الأمبراطورة زويا وهو من الطبقة الوسطى مولداً، وتزوجت أخته بقالاً، ولكنه نجح في رفع شقيقه ثم ابن أخته إلى العرش الأمبراطوري...

فمثلاً تيودورا مارست التمثيل وولدت في السرك، وثيافانو إبنة صاحب الخان أصبحت كلتاهما أمبراطورتين. إذن مهما يكن فإنهم يبدأون سيرة جديدة من الأرستقراطية، وكان الطموح صفة عامة في بيزنطة لذا يعمد الآباء من أبناء الطبقة الوسطى إلى بذل كل جهد وإتيان أي عمل من شأنه تشجيع الأذكياء من أبنائهم. وهناك أمثلة عن أم باسيل الأول والتي عملت من أجل إيصال ابنها إلى العرش.

طبقة الخصيان:

إذا أراد أحد الصبيان من أبناء الطبقة الوسطى النجاح ربما كان من الحكمة تَخْصِيَتُهُ، ذلك أن بيزنطية كانت جنة الخصيان، حتى العائلات النبيلة لم تكن تستبعد أن تــنكل بأبنائها لتساعدهم على التقدم وليس في ذلك مساس بالشرف أو الكرامة. فالخصي لا يصل إلى العرش ولا ينقل الحقوق الوراثية، ولكن في ذلك استثناء فالأمبراطور رومانوس الأول بخصاء ولده غير الشرعي باسيل حكم الأمبراطورية عشرات السنين، وحضن أصغر أبناء الأمبراطور رومانوس الأول وأصبح بطريقاً. وكانت نسبة ضخمة من بطاركة

القسطنطينية من الخصيان. وكان الخصيان يجدون تشجيعاً خاصة في الخدمة المدنية وهناك رتب خاصة للخصيان. وغالباً ما كان يعقد لواء الأمرة في الجيش والأسطول للخصي... ولكن هناك مناصب موصدة بوجه الخصيان كمنصب والي المدينة، والواقع أن الخصاء لم يوسم بالعار إلا بعد أن أتت من الغرب مفاهيم الفروسية والجنس. وتكون من الخصيان طبقة من الموظفين لمواجهة الإقطاعية المنتشرة في بيزنطة.

ولا شك أن الخصيان شكلوا طبقة مهمة يعتمد عليها الأمبراطور ولم تتداخل حالتهم الجسمانية مع أخلاقهم وشخصياتهم، فلم يكونوا أكثر فساداً أو تآمراً ولا أقل وطنية من زملائهم الكاملي التكوين.

وكان خصيان الطبقات الدنيا يساعدون الأطباء في مهنهم حيث يستطيع الخصي الدخول إلى الأديرة ومستشفيات النساء رغم رفض بعض المؤسسات النسوية المتشددة بتعاملها معهم.

طبقة التجار:

اهتمت بيزنطة بالتجارة، ونلاحظ أن البلاط الملكي شكّل أعظم الدور التجارية بالقسطنطينية بسبب احتكار تجارة الحرير، وحتى الأباطرة كان لهم اهتمام بالتجارة، فنقفورفوقاس كان يحتكر تجارة القمح في أيام المجاعة والأسر النبيلة أيضاً عملت بالتجارة

وخاصة صناعة البسط. والكنيسة أيضاً عملت بالصيرفة، ولطالما حاولت الدولة إصدار التنظيمات التجارية لصالح المواطنين، وأكبر التجار كانوا من ملاكي الإقطاعات الكبرى. وكانت التجارة تتركز في القسطنطينية وخاصة بين الأرمن.

الألبسة البيزنطية:

لقد نبذ القوم التوجا في القرن الخامس و أحلوا مكانها سترات طويلة من الديباج الموشى وكان الأسكارمانجيوم وهو رداء النبلاء يلبس في المناسبات الرسمية، وكلما تقدمت القرون زادت الألبسة اتقاناً ورونقاً. وصار كل من الرجال والنساء يلبسون أغطية عجيبة للرأس من عمائم أو قبعات، وظهرت عادة إرسال اللحى منذ القرن السابع فصارت عادة حلق اللحية عادة غريبة وسوقية. وكانت أدوات التجميل شائعة الاستعمال وخاصة بين الفتيات الصغيرات اللواتي يطلين وجوههن بالصباغ.

الحياة اليومية في بيزنطة:

الحياة اليومية لها نظامها الصارم والسلطات تتدخل في كل شيء، فالأسعار والأرباح وساعات العمل تنظم في ديوان والي المدينة، وكان للكنيسة أيضاً تعاليماتها عن الصيام والأعياد.

والإمبراطور حياته معينة الحدود مضيق عليها أكثر من أي فرد، فعليه أن يحضر الحفلات وأن يظهر في ميدان السباق كمشجع للرياضة ولا بد من تغيير ثيابه كل يوم وأن يسير في مواكب طويلة وعلى رأسه تاج ثقيل،ــ وعليه أن يستقبل السفراء وأن يستعد لارتفاع العرش في الهوءا بغتة للتأثير في الأجانب البسطاء. وربما عليه أن ينتجع في الصيف أو يقود جيشه في أعالي جبال آسيا الصغرى. إن الأمبرطور قد يعيش حياة الدعة إذا كان لديه وزراء مقتدرون يدينون بالولاء والإخلاص للأمبراطور.

صفات المجتمع البيزنطي:

اتصف المجتمع البيزنطي بالمفاسد والتآمر والقسوة وأبلغ شاهد ندرة الأباطرة الذين ماتوا ميتة طبيعية، إضافة إلى أنه هناك نفر ممن عملوا بإخلاص للدولة، ولكن الفساد سببه سلطان المال. ولقد بالغ القوم في القساوة، فسكان القسطنطينية كانوا على جانب كبير من الفظاظة والشدة كلما حدث ما يثير غضبهم وأحقادهم.

فربما لقي الأباطرة المخلوعون ألواناً من العذاب كسملٍ ميخائيل أو نتفٍ لحية أندونيكوس الأول ونزع أسنانه وفقئ عينيه وتمزيقه إرباً في حلبة سباق الخيل، لذا فالشعب الغاضب لا يعرف الرحمة. ولطالما خبأ الأمبراطور والمخلوع عن العرش أو

المغضوب عليه في الأديرة. والعقوبة على الآثمين كانت تتنوع بين الحرق حياً أو الإعدام وكان سمل العينين أخف من الإعدام. والبيزنطي أفضل من الروماني الذي يقذف بالأشخاص إلى حلبة الخيل لتأكلها الأسود.

ورغم ذلك فالمجتمع البيزنطي له سجايا وصفات طيبة، فهم يحسون فخاراً بأمبراطوريتهم وحضارتهم ويحبون العلم ويتعشقون الجمال، فبات التعليم لا المولد جواز المرور إلى المجتمع البيزنطي الراقي. وكان البيزنطيون يستحسنون كل ذي عقل حسن التدريب يعبر عن نفسه برقه مقتبساً من آداب السابقين الكلاسيكية، ولقد أخذ البيزنطيون علوم العرب وتسليات الغرب.

والواقع أن المجتمع البيزنطي أحب الجمال البشري، فلم ينقذ الأمبراطورة زويه إلا جمال طلعتها وحتى وهي في الستين من عمرها، وكانت الحدائق والأزهار مناط بهجتهم وسرورهم. وكانوا يبنون أديرتهم في مواقع تطل على أجمل المناظر الطبيعية والجمال معيناً لتأملهم الصوفي، فهو جزء من مجد الله. فالحياة قبيحة ولكن المواطن الواقف في رحاب كنيسة القديسة صوفيا هو بمنأى عن قباحة الدنيا. ففن العمارة في هذه الكنيسة أي الفن البشري والفن الرباني يرفعان المؤمن من العالم الدنيوي ويقربانه من الله. فالجمال عند البيزنطي صنو للدين وهو من بركات الله ولعل سبب هذا

الترابط بين الجمال والدين، أن البيزنطيين كانوا يعيشون الشدائد فخلف الحدود أعداء كثر. فلا غرو أن سبح البيزنطي في عالم الغيبات في الاتحاد بشخص الخالق والأمل بحياة سرمدية. فالنكتة لذاعة المذاق والفكاهة لا تحمل إلا السخرية، إذن فهذه الإمبراطورية كانت الأمل للحضارة في عالم كالح الوجه حافل بالأعاصير...

واهتم البيزنطيون أيضاً بالمسرات، والواقع أن مراسم البلاط كانت المصدر لجميع التسليات. فالولائم الخاصة كانت كثيرة بين الأباطرة ورجال الكنيسة أو بين القادة والأباطرة حيث تدبر الانقلابات.

والواقع أن تراجم القديسين حافلة بأخبار أصدقاء الرهبان الذين يتغذون معهم في أديرتهم ويرفضون ولائم الأغنياء. إضافة إلى إقامة حفلات لدراسة الكتب ولطالما كشفت الولائم عن عظمة بعض القادة مما يؤدي إلى الإطاحة بهم. وكان البعض ينتقد حفلات المنازل لأنها اجتماعات لانتقاد صاحب المنزل ومحاولة لغواية زوجة المضيف.

الأوضاع الدينية في بيزنطة

إن وصول الأمبراطور قسطنطين إلى الحكم، أعطى للديانة المسيحية مكانة "رسمية"، وخاصة بعد أن نُشِرَ مرسوم ميلان سنة ٣١٢ والذي قضى برد كل الحقوق الدينية إلى المسيحية وأن تعاد للكنيسة كل ممتلكاتها التي صودرت من قبل. والواقع إن قسطنطين أعتنق المسيحية بحذرٍ شديد، فمثلاً أصدر مرسومين ليكرس الصلاة يوم الأحد وأيضاً سمح للناس بإستشارة العرّافين، ومهما كان دافعه لذلك. فإننا نجد مسايرته للمسيحية لا تقل عن إهتمامه بالوثنينية. وربما كان إهتمامه بالديانة المسيحية مقولة: "إن من كان يريد الشرق فعليه أن يكون مسيحياً".

المهم أن قسطنطين عايش الوثنية والمسيحية، ثم مال إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى صار مسيحياً.

وما لبث أن ظهر قسطنطين في سنة ٣٢٥ بمظهر راعي النصرانية وخاصة بعد أن انقسمت الكنيسة بسبب الخلاف بين القسيس آريوس في الاسكندرية ورئيسه اسقف مصر حول طبيعة الوهية المسيح، فقد نفى آريوس الألوهية للمسيح، فدعا قسطنطين الأساقفه إلى مجمع نيقية. وقرّر بأن آريوس خاطئ وبأن للمسيح طبيعة إلهية (اللاهوت) وطبيعة إنسانية (الناسوت).

والواقع أن مجمع نيقية كرس أتبع الكنيسة للأمبراطور فبات رئيسها، وأن الخصومة قد انتهت بين الكنيسة والدولة. ولم يعد الإمبراطور بحاجة لإدعاء النسب إلى هرقل أو أبو للون. وزادت كرامته الروحية باهتمام أمه هيلينا بالبحث في بيت المقدس عن آثار السيد المسيح، وتمكنت من العثور على الصليب المقدس وتاج الشوك والحربة والأسفنجة وجميع ما صحب آلام الصلب.

عقد قسطنطين المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ لتنظيم العقيدة المسيحية في الدولة، والواقع أن الآريوسية (الأرثوذكسية) لم يقضِ عليها ما أصدره مجمع نيقية من قرار ببطلانها، وتبين فيما بعد لقسطنطين أن الأريوسية قد انتشرت في الشرق، بل تسربت إلى دوائر القصر. لذا تغير إتجاه الأمبراطور نحو الأريوسية.

وفيما بعد أدَّت الأريوسية إلى إزدياد الخلافات بين أبناء قسطنطين وإزدياد الانشقاق بين شطري الأمبرطورية البيزنطية.

وفي عهد الأمبراطور مرقيان حوالي سنة ٤٥٠ تولى بطريركية القسطنطينية نسطوريوس، الذي أنكر الطبيعة الإلهية للمسيح وقال: "بأنه إنسان ووالدته ولدت إنساناً وهي ليست آلهة". فتصدى له بطريرك الإسكندرية كيرلس الذي قال: "بأن المسيح إنساناً ولكن اتحدت فيه الطبيعة البشرية والطبيعية الإلهية أثناء

الصلب والتجسد". ودعا إلى المذهب المونوفيزي أو مذهب الداعي إلى المونوفيزية وإسمه أورتيخا.

وتطورت الأوضاع الدينية في عهد الأمبراطور هرقل، ولقد ترتب على استرداد الأقاليم الشرقية من الفرس بعودة مشكلة المونوفيزتية، وأدرك البطريرك سرجيوس خطورة الأمر، ولكنه أفاد من هذه العقيدة بفرض ما للمسيح من طبيعتين (إلهية - بشرية) اللتان تتسمان بإرداة واحدة، إذن التوفيق بين المذهب الخلقدوني والمونوفيزتية نشأ عنه ظهور مذهب الإرادة الواحدة أو المونو تلسيتية، وأيد سرجيوس ذلك وصار يتفاوض مع رؤوساء الكنائس الشرقية، وكان هدفه منع الاختلافات المذهبية والتي بسببها سجلت الأمبراطورية الفارسية انتصاراتها على الدولة البيزنطية. وبدأت الدعوة سنة ٦٣١م إلى توحيد الكنائس، ولكن الراهب صفرونيوس بطريرك بيت المقدس أشار إلى عدم سلامة المذهب الجديد. وشكك البابا أيضاً في مذهب الإرداة الواحدة (المونوثلستية). فاتفق على أن إرادة المسيح واحدة وأن له نشاطاً واحداً. وتم الإتفاق بين الكنائس والدولة.. ولكن بعد وفاة سرجيوس عاد الإنقسام بين المذهب الخلقدوني والمونوفيزتية اللذان كانا منتشرين في الشرق.

وفي عهد قنسطانز تجددت المشاكل الدينية لذا عمل قنسطانز على مصالحة الكنيسة، فأصدر سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة الصيغة

المعروفة بإسمTypos وحرم إثارة النقاش في مسألة الإرداة الإلهية، ولم يرض ذلك رجال الدين، فقبض الأمبراطور على البابا مارتن وتم نفيه. وبعد مفاوضات بين بطريرك القسطنطينية وبابوية روما، عاد الوفاق وزال الشقاق بين كنيستي روما والقسطنطينية، فقوي مركز الامبراطور نتيجة ذلك الشقاق في إيطاليا. ولقد تخلص الأمبراطور من مكسيبوس عدو المونوثلستيه بنفيه سنة ٦٦٢. والواقع أن النزاع الديني كان له أهميةً كبيرةً في السياسة الكنيسة، لا سيما ما يتعلق بنضال الكنيسة التي كانت تتوق إلى التخلص من الخضوع والسيطرة السياسية للأمبراطور بصفته علمانياً. والواقع أن مكسيموس يعتبر من المدافعين عن حرية الكنيسة تجاه الأمبراطور، وفكرته هذه عاشت حتى بعد نفيه ووفاته، وأدت إلى ما يشبه الصراع الدائم بين الكنيسة والدولة، وعادت المشاكل الدينية للظهور في عهد جستـنيان الثاني والذي اشتهر بالتقوى، ولقد نقش على النقود عبارة عبد المسيح، وصورة المسيح. وفي عهده عقد مجمع تريللو لتنظيم الطقوس والشعائر المسيحية لقاء رفع الروح المعنوية لرجال الدين، إضافة إلى إلغاء بعض العادات والتقاليد الكنسية والتي ترجع في أصولها إلى الوثنية، فمنع طلبة جامعة القسطنطينية من الاشتراك في الاستعراضات المسرحية، وسمح للقساوسة بالزواج، ومنع صوم يوم السبت، ولكن البابا سرجيوس رفض ذلك، وظن جستنيان الثاني أن بإمكانه القبض على البابا

وإرساله إلى المحاكمة كما فعل قنسطانز الثاني، ولكن يظهر أن سلطة الأمبراطور قد انتهت في إيطاليا، بينما قويت شوكة البابا، فما كان من موفد الأمبراطور إلا أن طلب العفو من البابا... وأدى ذلك إلى مقتل جستينان الثاني فيما بعد.

وغلب على الحياة في الأمبراطورية طابع الزهد والتصوف، وصار الأباطرة متصوفين وترتب على الفتوحات الإسلامية إنفصال أصحاب الطبيعة الواحدة، فصارت الدولة أرثوذكسية كاثوليكية، وصار الأمبراطور يقسم عند تقبله التاج من يد بطريرك القسطنطينية وبأنه سيكون ابناً للكنيسة وخادمها. وتزايد نفوذ الكنيسة بين العامة فحرّك وعظها الأفئدة والصدور، وتعلق الشعب بالرهبان، وعقدت على صلواتهم الآمال، فأقبل الناس على الديرية. وبسقوط الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس في أيدي المسلمين، أصبح لبطريرك القسطنطينية الصفة المسكونية. وأدى ذلك إلى جدل عنيف بينه وبين بابا روما. وعادت بذور الإنشقاق بين الكنيستين، أضف إلى ذلك ما قام به الأباطرة (إلقاء القبض على البابا مارتن) مما ترك الأثر السيء في نفوس أبناء روما. ومما ساعد في التباعد، (قضية اللغة يونانية – لاتينية).

وقد أدى انتشار الرهبانية إلى ازدياد عدد الرهبان، مما أدى إلى نقص في خزينة الدولة بسبب اعفاء الرهبان في الضرائب،

فتوفر للأديرة الثروة التي أكسبتها أهمية على الصعيد السياسي لجهة مناهضة الأمبراطور، إضافة إلى أثر الرهبان الاجتماعي. فباتت الأمبراطورية البيزنطية آنذاك أمبرطورية الجند والرهبان... ونلاحظ أن الأوضاع الدينية في عهد الأسرة الهرقلية كانت تتأرجح بين المهادنة والمواجهة.

فالأمبراطور فليبكوس بثّ المنازعات الدينية من جديد وآثار النزاع على الأيقونات، وبذلك سبق الزمن بحدوث نضال شديد حول عبادة الصور المقدسة..

لقد ظهرت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة ضمن مرحلتين: المرحلة الأولى وتمتد من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٨٠ وتنتهي بالمجمع المسكوني السابع، أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٤٣، وانتهى ما كان معروفاً بإسم العودة إلى الأرثوذكسية.

وسبب ظهور الحركة الأيقونية، الحياة الاجتماعية في الدولة البيزنطية، التي غلب عليها الاعتقاد بالمعجزات والنبوءات والمصائب حتى الهزائم العسكرية غلب عليها الطابع الديني، وإن المصائب لا يستطيع الإنسان أن يدفعها لأنها أمرٌ سماويٌ بنظرهم، فازدادت مكانة رجال الدين تبعاً لذلك، فمنهم يلتمس الناس البركات وإلى مشاهدهم يحج أصحاب الحاجات، ثم يعودون بأثرٍ من آثارهم أو رسم من رسومهم ليكون هذا الأثر الملاك الحارس والأب

الروحي للأسرة كلها، لذا ارتفع شأن القديس ديمتريوس وأندرو في اليونان، وأحيطا بهالةٍ من القداسة، وصار لهما صفات العصمة والتقديس واحتلت صورة المسيح والعذراء المكانة المرموقة في القسطنطينية وسائر المدن البيزنطية، أمامها سجد الناس يستلهمون النصرة ودفع المكروه، ومنها التمسوا البركة والشفاء وقضاء الحاجات، واعتقدوا أنها تحرس المنازل وتحمي المتاجر، واعتبروا أن انتصار هرقل على الفرس إنما يرجع ذلك لأنه كان يحمل صورة العذراء، دون اعتبارٍ لمهارة الجيش القتالية.

والخلاصة أن عبّاد الصور يؤكدون أنك إذا لم تعبد الصورة فإنك لا تعبد ابن الله الذي يعتبر الصورة الحية للإله الذي لا تبصره. وامتلأت الكنائس بالصور المقدسة، وجرى تعليقها بالدور والحوانيت وطرزت على الملابس، ونقشت على الكتب والأثاث، ونحتوا لهذه الصور تماثيل في الميادين وعلى أسوار القصور الأمبراطورية.

لقد اعتبر أنصار عبادة الصور (الأيقونيون) أن هذه الصور هي انجيل هؤلاء الذين لم يكن لهم حظ من التعليم، بل انطوى دفاع عبّاد هذه الصور على ما هو أعمق من ذلك، لقد رأوا أن لكل شيء ناحيتان: ناحيةٌ جسدية وناحيةٌ روحية، فالروح تستر وراء حجاب الجسد، ونحن نصغي للعبادات بالأذن ومن ثم ندرك الحقائق الروحية، من أجل هذا اجتمع في المسيح (الجسد والروح).

والمناهضون لعبادة الصور المقدسة يعتبرون أن المادة شر، والمسيح كجسد جعل المادة مقدسة، وإذا أنكر ما للمسيح من صفة مادية، فمعنى ذلك إنكار التجسد، والواقع أنه لم تكن المادة هي التي عبدت، بل يُعبد السيد الذي استحال مادة من أجلنا، فاتخذها موطناً ومن خلالها صار يعمل لخلاصنا ولم تكن المادة موضع احتقار، بل ما يصدر عن الإنسان من خطيئة يعتبر محتقراً.

عبادة الصور المقدسة:

قام ليو الثالث بمعارضة عبادة الأيقونات إضافة إلى ظهور نحلة البيالصة أو (الحركة التطهرية) هؤلاء عارضوا عبادة الصور وتمسكوا بروحية الديانة المسيحية وبعدها عن المادية، ولقد تأثروا بالمسلمين واليهود. وأخذ ليو بعض مظاهر الحضارة الإسلامية وخاصة كراهية التصوير والتماثيل. والمعروف أن الخليفة عبد الملك أصدر سنة ٧٢٣ قراراً بإزالة الأيقونات من الكنائس المسيحية في الدولة الإسلامية. مما دفع ليو الثالث فيما بعد إلى التشدد في قمع هذه الظاهرة. وكان هدفه أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والدولة. ويضمن تأييد النساطرة واليعاقبة في الكنائس الشرقية، فعقد مجلساً وأصدر مرسوماً سنة ٧٢٦ لإلغاء كافة التماثيل والصور وحرم تصوير السيد المسيح والعذراء، وأمر أن يغطي بالجص ما على جدران الكنائس من صور. فثار الشعب وخاصة

النساء، وناد الثوار بأمبراطور جديد وسيروا أسطولاً ليستولي على العاصمة، ولكن ليو انتصر عليهم.

أما في إيطاليا فقد طرد عمال الأمبراطور، واجتمع البابا جريجوري الثاني مع الأساقفة، وصب اللعنة على محطمي التماثيل والصور المقدسة (دون ذكر إسم الأمبراطور).

وتحرك بطريرك القسطنطنية جرمانوس ضد الأمبراطور، فنفاه وعزله من منصبه، وتصدى أيضاً حنا الدمشقي الذي عمل في بلاط الأمويين، وأشار إلى أن الايقونات ما هي إلا رمزٌ أو وسيلةٌ بمقتضاها يقف عامة الناس على ما ينبغي أن يقدسوه ويبجلوه، وبذلك برّر استخدام صورة المسيح اعتماداً على عقيدة الحلول. ولقد أدى الشقاق الديني إلى شقاق سياسي. فانفصل وسط ايطاليا عن بيزنطة والتصق بأوروبا. وبقيت بعض المناطق في إيطاليا تابعة ليزنطة فازدادت سيطرة القسطنطينية عليهم، أضف إلى ذلك قيام ليو بإخضاع الكنيسة لسيطرة الأمبراطور.

ولقد أدى النضال الأيقوني إلى انسحاب روما من الشرق، وخرجت بيزنطة من الغرب اللاتيني وبذلك انهارت الوحدة السياسية والدينية التي تمسكت بها كل من الأمبراطورية البيزنطية والبابوية في أوروبا.

وفي عهد ليو الخامس عقد المجمع المسكوني بمساعدة حنا النحوى، ولكن البطريرك نقفور تحمس لعبادة الصور، وطلب من الأمبراطور الاهتمام بالأمور العسكرية، مما أغضب الأمبراطور وصار عباد الصور تحت المراقبة وما لبث ليو الخامس أن خلع نقفور عن البطريركية. ودعا إلى تحريم الصور وحرقها فأدى ذلك إلى الانقلاب عليه وقتله.

وتبع التغيير السياسي من حكم تيودورا إلى حكم أخيها بارداس (الوصي على ميخائيل الثالث) إلى العودة للاهتمام بالناحية العلمية وإنشاء الجامعة في قصر ماجنورا. وبها زكت العلوم الدينية واستقطبت طائفة من رجال العلم. وعمل في الجامعة فوتيوس وهو من أشهر أساتذة عصره. وأقال بارداس بطريرك القسطنطينية وعين مكانه فوتيوس فاعترض البابا نقولا على ذلك. فعقد المجمع المتعلق بتحريم عبادة الصور، حيث ناقش أساقفة البابا قضية فوتيوس، وهدد البابا بالقضاء على القسطنطينية إذا لم يعد الأمبراطور عن قرار تعيين فوتيوس لأن القرار اتخذ بدون أخذ رأيه، وهذا يعتبر ظلماً، وأن يعيد بارداس للبابوية ما أخذه ليو الثالث من الأملاك التابعة لكنيسة روما.

ولكن فوتيوس عقد مجمعاً في القسطنطينية سنة ٧٦٧ أعلن فيها بطلان ما أدخلته كنيسة روما من نحل على التعاليم المسيحية،

وجرت مفاوضات سرية بين القسطنطينية والأمبراطور لويس قرر بموجبها خلع البابا من منصبه وإتهامه بالهرطقه. وبطلان قضية الروح القدس ونحلة (ومن الإبن).

وفي عهد رومانوس ليكانيوس ظهرت حركة البوجوملية وهي مذهب الأثنوية، ولقد انتقلت من أرمينيا إلى تراقية، وازدهرت هذه النحلة بين الصقالية والبلغار ومن امتزاج البيالصة والمصلين ظهرت البوجوملية (بوجومل) وهي تقوم على مبدأ الخير والشر وما بينهما من اتصال، ولقد مال البوجوملية إلى الزهد والتقشف فأنكروا كل عبادة لها ظاهر دنيوي، واحتجوا على النظام الكنسي والحكام الأغنياء الأقوياء.

والواقع أن البوجوملية لم يكونوا إلا فلاحين من الصقالبة يناضلون ضد المزارعين الملاك من البلغار... وهذا نضال طبقي بين أغنياء وفقراء اتخذ شكلاً دينياً.

إذن كنائس الشرق وخاصة الإسكندرية ظهرت فيها المونوفيزتية أو نظرية (أوطيخا) (أورتيخا) وهي تقول بوحدة طبيعية المسيح واستمرت فترة القرنين واعتبرت القسطنطينية أن ذلك مخالفاً للطبيعتين. وظهرت فيما بعد المونوثلسيتية أي وحدة إرادة المسيح.

ويعتبر القرن الثامن، عصر تحطيم الصورة حيث ظهرت البوريتانية (البيالصة) وكانت جند المونوفيزتية. والواقع أن مذهب

تحطيم الصور أساسه علم طبيعة المسيح وشخصه، فهل ترسم الوهية المسيح؟ فإن لم يكن ذلك، أليس من الوثن عبادة الصورة؟

ونلاحظ أنه في القرن الثاني عشر عاد ديمتريوس اللامبي وقال: "بأن الألمان قالوا بأن الابن معادل للأب". ولكن فاته أن يدرك خفايا مفهوم الثالوث، وباتت الخلافات المذهبية تقول حول لاهوت المذهب الباطني وطقوس الميل إلى التصوف.

واستمر التطور الديني في القرن الحادي عشر، لنجد سمعان يبشر باللاهوت الجديد والدعوة إلى التجرد النفسي والاعتراف بالباطني، وظهرت عبارة (وعن الابن أيضاً) وهذه العبارة أثارت المشاكل بين القسطنطينية وروما. وأبت روما ترك هذه العبارة، وقام رهبان دير كلوني الفرنسي بتجديد مدعيات الكرازة البطرسية العالمية سنة ١٠٢٤، فطلب بطريرك القسطنطينية بالاستقلالية مع الاعتراف بأسبقية روما، ولكن بمجيء الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية قضي على الوفاق بين القسطنطينية وروما بسبب الاحتلال. ورغم ذلك بقيت بيزنطة ورهبانها على عقيدتهم، وعادوا إلى الاجتماع ولكنهم رفضوا عبارة (وعن الابن أيضاً) (أي عن طريق الابن) واستمرت الخلافات مع مرور الأزمنة ولكن بطريقة بعيدة عن التوتر السياسي والديني...

التنظيمات العسكرية في بيزنطية

الـجـيـــــش:

كانت بيزنطة محاطة بالأعداء من كل جانب، ومعرضة للغزو في أي لحظة، إضافة إلى الثورات الداخلية. هذا الوضع تطلب وجود الجيش والأسطول مع التركيز على المهارة والاستعداد الدائم. إضافة إلى الكفاية في السياسة الدبلوماسية.

لم يكن البيزنطيون شعباً عسكرياً كما كان الغرب الآخذ بالفروسية، والواقع أن الظروف هي التي فرضت على البيزنطي الاهتمام بالشؤون العسكرية، لذا كانت بيزنطة هي التي تدرس أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية، وأخرجت بيزنطة سلسلة من الكتّاب العسكريين ومن خلالهم عرفنا تطور تاريخ العسكرية البيزنطية – ولقد كتب الأمبراطور لاوون سنة ٩٠٠م بحثاً عن الجيش اسمه (التاكتيكا) أي (فنون الحرب). وكأن هناك أبحاثاً تقدم إلى القادة أو بعض الأبحاث عن خيرة بعض الجنود في القتال، ولقد اهتمت آنا كومينا بالشؤون العسكرية وأشارت إلى الانحلال الذي بدأ يدب في الجيش.

أثناء حكم قسطنطين كان الجيش الروماني يعتريه تغيير. لقد كان الحرس الأمبراطوري ينصب الأباطرة ويخلعهم، كما أن الولاة الذين تحت تصرفهم فيالق من العسكر أيضاً كانوا في حالة من التمرد والثورة، ولقد حاول دقلديانوس القيام بإصلاحات، فأنشأ قوةً نظاميةً ثابتةً في الثغور ومرتبطةً بالأرض وهم قوة الحدود، وما لبث دقلديانوس أن نظّم جيشاً مركزياً سريع الحركة هو جيش الردفاء تحت قيادة الأمبراطور للقضاء على أية مشكلة وبسرعة.

والواقع أن الجيش بتجهيزاته القتالية كان في تطور مستمر، فإن جندي الكتيبة لم يعد نداً لملاقاة الفارس البربري، إضافة إلى ضعف المُشاة أمام خيالة القوط، لذا بدأ الاهتمام بسلاح الفرسان من البرابرة، وأنشأ نظام جند المحالفين وهم البرابرة الذين كانوا يحاربون تحت أمرة الرومان، ولكن لما ازدادت قوتهم خفض عددهم إلى مستوى يسهل به القضاء عليهم.

وظهر أيضاً الكاتافراكتي أو الجند الخيالة المسلحة بالقسي والواقع أن نظام جند المحالفين تركت نظاماً سيئاً للتجنيد، فالقائد هو الذي يجمع جنوده وكل جيش باسم قائده ويسمون بمرتزقة الجرايات أو التموين. ولقد أعطى يوستنيانوس الأموال لقواده مما أدى إلى نقص في عدد المرتزقة ونقص في أعداد الجيش الأمبراطوري.. واعتمد الجيش على نظام السرية وهي مكونة من ٣٠٠٠ جندي أو

أكثر يقودهم رائد (تريبون)، وهناك نظام الكتيبة والتي تتألف من ٦ سرايا أو أكثر يقودها (ميوراش) أو (دوق)، وأعداد السرايا غير معروفة حتى لا يعرف عدد الجيش، ويتم تجميع الجيش من قبل القائد، ولم تكن هناك فرق دائمة إلا فرق المرتزقة، الجرايات والجند المحالفين والجند المختارين وهم بقايا المرتزقة الذين يكوّنون ضرباً من الحرس الأمبراطوري.

وعمل موبقيوس على إنشاء قوة محلية مرابطة، فعلّم الرجال الرماية وامتلاك القوس والرمح ليتمكنوا من الدفاع عن أقاليمهم وقت الغزو المفاجئ وبعد الهزائم التي مُنيت بها بيزنطة بسبب الفتوحات الإسلامية ظهر نظام ألوية الثغور للدفاع عن أماكن معينة. وكان رئيس ألوية الثغور هو رئيس الحكومة المدنية، وكان كل لواء يسمى باسم الفرقة التي تحتله مثل لواء فرقة المختارين (ثغر الأوبتيماتية)، وفيما بعد أضيفت ألوية جديدة مثل اللواء الخرشني (الخارسياني). وفيما بعد انقسم اللواء إلى ناحيتين، في كل منهما إمارة كتيبة أو ناحية أو منطقة، ويحكمها آمر كتيبة. وكل كتيبة مقسمة إلى سرايا ثلاثة وعليها قائد سرية وكل سرية تنقسم إلى عشر فصائل بقيادة قومس. وهُناك أيضاً مناطق الثغور ويحكمها قائد الثغور وربما رفعت إلى مرتبة الألوية، وكان جيش الألوية هو الذي يدافع عن الأمبراطورية. الذي كان أهم سلاح للدولة.

وظهر فرع جديد للجيش في القرن التاسع هو (التاجمانا) أي الفرق الأربع للحرس الأمبراطوري (المدارس، وحدة الجند، والمراقبة، والهيكاناني) وكل فرقة تحت قيادة (دومستيق) أي ضابط القصر باستثناء فرقة المراقبة تحت حكم قائد كتيبة، وكان الجند يعكسرون في تراقيا أو بثينيا.

أما واجبات الكتائب فكانت مرسومة بدقة، وكان جيش الألوية يقوم على حراسة البلاد وحمايتها من الغارات الأجنبية، فإذا اخترق العدو الحدود أبلغ القائد المحلي الأمر في الحال إلى قائد اللواء فيرسل تحذيراً إلى الألوية المجاورة، بينما تنطلق خيالة القائد المحلي لتعقب المغيرين.

وكان الجيش البيزنطي إذا قام بهجوم خرجت فرق الحرس الأمبراطوري الأربعة من القسطنطينية بقيادة الأمبراطور أو دومستيق المدارس لتلتقي مع جند الألوية المختلفة.

والخطط العسكرية كان رائدها الحذر، ولم يكن الجيش البيزنطي ضخماً كجيش المسلمين، كما أنه كثير النفقة لذا كان يلزمه البعد عن الإسراف في الأرواح والعتاد، وعدم التهور والتسرع في الرد خاصة على الهجمات المباغتة، والحذر من الكمائن وأن لا نترك المعسكرات بدون حراسة، وأن يكون لهم طلائع كشافة واعتماد

الاستراتيجية والحيَل. والإبقاء على حياة الأسرى، وعدم التعرض للنساء، وأن لا تكون شروط الصلح قاسية، وأن ترسل إلى قواد العدو رسائل توقعهم في الشبهات لكي يقع الشر بينهم، ولا بد من إبلاغ الجند بالانتصارات لرفع معنوياتهم العسكرية، ولو كانت انتصارات وهمية، ولقد عرف عن البيزنطيين الذكاء في مواجهة الأعداء ومعرفة الطرق والأساليب والخطط الحربية لكل عدو، واستنباط الوسائل لمقاومتها، مثلاً عُرِف عن الترك والمجر والبشناق المكر ولهم خيالة خفيفة لذا وجب على البيزنطيين تجنب الكمائن، وأن لا يسرعوا إلى الالتحام معهم في المعركة.

وعرف عن الصقالبة وهم من المشاة الخفاف خاصة في التلال والأماكن الوعرة بينما نراهم في السهول في سوء تنظيم وفوضى. والمسلمون عرفوا بحشد الجيوش ولهم قدرةٌ محدودة من الدراية بفنون القتال، وروحهم المعنوية تنحط عند الهزيمة والهجوم الليلي يجعلهم يتحركون ببطء، ويتأثرون بالبرد والمطر.

والحصار أيضاً له فنونه المتطورة، ولا بد من الانقضاض على العدو من داخل الأسوار ومتابعة استخدام الحيَل...

أما فرسان الخيالة فكانوا يلبسون مغافر من الفولاذ ودروعاً مع علامات مميزة للضباط، ولهم عباءات يلقونها على دروعهم تبعاً

لحالة الطقس، وأسلحتهم السيف والرمح والخنجر والقوس، والراية تلوَّن بلون الفرقة، أما المشاة فهم من النابلة أو من حملة الحِراب، وهناك فرَقٌ من المشاة تحمل البلطات والرماح والسيوف، ويلبسون الدروع وهؤلاء يقفون في الممرات الجبلية الوعرة. والنار الإغريقية هي للأساطيل ويستخدمها الجند لدفع المحاصرين عنهم.

بالنسبة لرواتب الجنود، فإن رواتب قواد ألوية الثغور تتراوح بين ٢٠ و٤٠ رطلاً من الذهب، أما آمر الكتيبة فيتقاضى ثلاثة أرطال أما ما دونه من الضباط فيتقاضى رطلين أو رطلاً واحداً، والجندي يتقاضى نوميسما واحدة عن سنة تجنيده، ولا تقطع رواتب الجنود أبداً.

ويقوم الصرّاف أو صاحب الخزانة بدفع أعطيات للجنود وهو ما يُقارب ٢٢,٥٠٠,٠٠٠ من الفرنكات الذهبية. على أن الجند كثيراً ما كانوا يتقاضون أرزاقهم أرضاً، كذلك الخيالة، والهيئة الطبية ويُعفَوْن من الضرائب إلا ضريبة الأراضي.

وكان عدد الجيش لا يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل، إضافة إلى المتعقبة والهيئة الطبية والخدم والعبيد لحفر الخنادق وإقامة الخيم وبناء الحمامات...

وازداد الاعتماد على المرتزقة، وصار الأجانب حرساً خاصاً للبلاط الأمبراطوري وفيما بعد صاروا يُستخدمون في أعلى المراتب في الدولة. وكانت تخصص مبالغ مهمة للمرتزقة لأنه في حال عدم وجود أموال تصبح القسطنطينية مثلاً بلا حامٍ يُدافع عنها كما حدث سنة ١٢٠٤.

الأسطـــــــول:

كان للجيش أهميةً قصوى في الدولة البيزنطية قياساً مع الأسطول الذي لم ينل ذلك الإهتمام لذا لم يكتب عن البحرية والأسطول إلا لاوون السادس ولقد أشارت آنا كومنينا إلى عدم أهمية الأسطول مقارنة مع الجيش والقوى البرية.

مما لا شك فيه أن الأمبراطورية الرومانية كانت تسيطر على البحر المتوسط، ومناعة القسطنطينية كانت تحول دون غزو قراصنة البحر الأسود لبيزنطة، وحتى غزوات القوط كان يلزمها بعض السفن لتجبرهم على الهروب. ولكن عندما ظهر الوَنْدال وغزو الساحل الأفريقي لفت ذلك نظر جستنيان إلى ضرورة وجود أسطول. ولكن ضعف الوندال فيما بعد لم يكن بسبب اهتمام بيزنطة بشؤون البحرية بل نتيجة الضعف السياسي.

ومع الفتوحات الإسلامية وتزايد القوة البحرية لدى المسلمين، انتبه هرقل إلى ضرورة تطوير القوة البحرية بعد أن تعذر السفر البري بسبب الإغارة والعودة إلى الطرق البحرية المحروسة بالجنود.

وعندما أنشأت ألوية الثغور، صار هناك لواء الكيبورهيوت ولواء البحر الأيجي. وكل لواء تحت أمره نائب أمير بحر ويتبع للقائد العام الكارابيساني. ولهذا الأسطول الفضل في حماية القسطنطينية واسترجاع صقلية. وفيما بعد صار يخافه الأباطرة المحاربون وظهر من قواده أتباع لعبادة الصور، وعندما وجد البيزنطيون أن قوة العرب في اضمحلال، تركوا الاهتمام بالأسطول ولكن في القرن التاسع عاد الأسطول الإسلامي واستولى على صقلية وكريت التي أصبحت قاعدة للقرصنة في بحر إيجه، فعادت بيزنطة لبعث الأسطول البيزنطي من جديد، وتنظيم الألوية البحرية في أيام تيودوا وميخائيل الثالث وباسيل، وأصبح مقر الأسطول في القسطنطينية وتحت قيادة أمير البحر الأعظم، ورغم ذلك بقيت مرتبات جنود الأسطول أقل من مرتّبات الجيش.

قامت البحرية بمحاولة استعادة صقلية ولكنها فشلت، ونجحت في بسط سلطانها على جنوب إيطاليا، وسيطرت على سواحل الأدرياتي، ولكن ليو الطرابلسي استطاع الإغارة على سالونيك سنة ٩٠٤ وتمكن أمير البحر الأعظم من القضاء عليه وعلى تجمع

قراصنة العرب واستردت كريت بعد محاولات عدة وسنة ٩٤٩ انتهت قوة العرب البحرية وقال نقفور فوقاس: "أنا من يتحكم في البحر المتوسط".

ولكن في القرن الحادي عشر اضمحلت قوة الأسطول البيزنطي بسبب خوف الأباطرة من نفوذ أمير البحر، وطلب باسيل الثاني سنة ٩٩٢ حراسة الأدرياتي من البنادقة، ولكن في عهد الكسيوس كومنين تطلب الوضع استئجار المرتزقة الإيطاليين، وأعاد الكسيوس بناء الأسطول ليحارب جنوى وبيزا، وانتهى الأسطول بعد كارثة ١٢٠٤ على يد الأتراك.

وكانت السفينة الحربية تسمى الدرمونه وهي ذات صفين من المجاذيف تحوي عدداً من الجنود يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ مُحارب، وهناك سفن البامفيليه وسفن الغلايين ذات الصفوف المفردة من المجاذيف، وكان سلاحها النار الأغريقية وهي عبارة عن قنابل تفجر في سفن الأعداء. أو تقذف بالمنجانيق وهي أوعية مملوءة بهذه المادة، ولقد بطل استعمالها بعد اكتشاف البارود.

فالحروب البحرية تتطلب الحذر، والمناوشات أفضل من المواجهة كما يقول لاوون وإعطاء الإشارات يتم بالإضاءة ليلاً أو بالرايات، وينبغي معرفة هبوب الرياح وتجنب السواحل الضيقة،

ولكن الكثير من الأباطرة لم يهتموا بالحرب البحرية، وكان هواية بالنسبة للأمبراطور لاوون السادس، لذا كان أكثر اهتماماً بالجيش.

الدبلوماسية:

الواقع أن البيزنطيين كانوا يفضلون الدبلوماسية على الحروب، ويعملون دائماً على الإيقاع بالأعداء مما يعيد التوازن ويلهي الأعداء عن غزوهم. ولقد كان وزير الخارجية هو الذي يتولى الأمر مع الأمبراطور مباشرة، وهذا الوزير هو الذي يستقبل السفارات الأجنبية، ويجهز السفارات إلى الخارج، بَيْدَ أن الشؤون الديبلوماسية كانت تديرها السلطات المحلية، فقائد خيرسون يتولى إرسال البعثات العسكرية مثلاً إلى المناطق المجاورة، كما فعل القائد برجاس في تحريض البشناق على البلغار، ولقد اعتبرت خرسون قاعدة ديبلوماسية في المنطقة، وثمة مناطق ديبلوماسية في إيطاليا أيضاً للالتقاء مع العرب ولقد اشتركت فيها القسطنطينية والقائد المحلي هناك، وغالباً ما كانت لتهدئة الأمور السياسية وتبادل الأسرى. وكانت هُناك سفارات مع بغداد والقوقاز.

وغالباً ما واكب السفارات مظاهر من الأبهة والسلوك لحفظ هيبة الأمبراطور، وكان السفير يسجد على الأرض، ويدعى فيما بعد إلى مأدبة رسمية، وإذا كان من دولة بربرية، أديرت له الألعاب، كأسد يزأر، أو كشدو الطيور الذهبية، وبينما السفير ساجداً، يرتفع

العرش وتتغير ملابس الأمبراطور، وأحياناً لا يلجأ المسؤولون إلى ذلك. ودائماً السفير تحت المراقبة، وأحياناً يوضع في السجن ولا حصانة لمن يحقر الأمبراطور أو يمس العادات التي يوصي بها البلاط. ولطالما سافرت البعثات محمله بالهدايا، وكانت هيئة الجاسوسية تعرف مع من يجب التلطف، لمعرفة ما تريده السفارة، كما حصل مع نقفور الذي طلب من معاونيه التلطف مع عضد الدولة (أهم مستشاري الخليفة).

ولطالما كان وراء هذا الطلاء من الفخامة ديبلوماسية ماكرة لا تهمها القيم الأخلاقية بقدر ما يهمها مصلحتها، فهي تحرش قبائل ضد دولة تربطها معها سفارات. فقد حرض لاوون السادس الهنغاريين الوثنيين على البلغار النصارى أتباع دينه ونلاحظ أن جنود الفرنجة هم الذين طردوا المسلمين وليست بيزنطة وكل ما قامت به بيزنطة أنها حرصت على قطف ثمرات النصر...

وكانت المصاهرة أيضاً تلعب دوراً مُهماً في الديبلوماسية البيزنطية لذا نجد أن أميرتين من الخزر جلستا على عرش بيزنطة، وزوّج رومانوس الأول ابنه من أميرة إيطالية، وإبان الحروب الصليبية ظهرت سلسلة من الأمبراطورات الغربيات المولد، ولقد كانت هذه الزيجات فاشلة، لم تجلب لبيزنطة أي مصلحة وكان زواج أميرات بيزنطة للروس أو للصقالبة يعتبر عملاً غير لائقٍ لأنهم

برابرة، في حين أن بعض الأميرات البيزنطيات أثّرن إيجاباً، بزواجهن من أرمن أو قوقاز فدخلت تلك الممالك بسببهن تحت النفوذ البيزنطي. ومهما يكن من أمر فإن نزعة التفرد لبيزنطة والترفع عن سائر الممالك المحيطة بهم وذلك بزواج أميرات بيزنطة من أمراء يوازونهن في الترفع قد خفت، وبذلك انحطت قيمهن الديبلوماسية.

وأولعت بيزنطة باستقطاب المطالبين بالعروش، كالمطالب بالتاج البلغاري أو الصربي.

وكانت الديبلوماسية البيزنطية باهظة النفقة، فهي تبذل البائنات والهبات لجميع الشعوب، وهي أمور ورطت الخزينة بمبالغ ضخمة، ولطالما دفعت الرشاوى بدلاً من الحصار أو التعرض لحربٍ، فصار هناك جماعات تعيش على ذهب الأمبراطور بدلاً من القيام بالغارات للحصول على الغنائم، فإذا كانت بيزنطة غير راغبة في الحرب، أرسلت الأموال سنوياً إلى بغداد أو إلى البلغار... وربما سميت (جزية) فإذا استعدت بيزنطة للقتال أوقفت ما يُسمى بالجزية والأمر يتوقف على امتلاء الخزينة بالمال، وعندما تدهورت الأوضاع الاقتصادية أصيبت الأمبراطورية بالتدهور السياسي.

<u>نظام الثغور أو الأجناد:</u>

أثناء السنوات التي تدفق فيها الأفار والصقالبية في البلقان وتوغل الفرس في الأقاليم الشرقية من الأمبراطورية البيزنطية

انصرف هرقل إلى القيام بإصلاحات بالغة الأهمية وأعطيت الأمبراطورية قوة جديدة جعلت الأمبراطور البيزنطي يعيد تنظيم أقاليم الدولة كإعادة نظام الأجناد أو الثغور وترتب على ذلك التخلص من أسس النظام الإداري الذي وضعه دقلديانوس وقسطنطين والذي لم يعد ملائماً لسد حاجات العصر لسد حاجات العصر آنذاك والذي اتخذه الأمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢) في إجراءات قضت بإنشاء أرخونيتان (منطقة من الدولة ينصب عليها حاكم عسكري) الأولى في رافنا في شمال إيطاليا والثانية في شمال أفريقيا. والهدف الأساسي منهما إبعاد خطر اللمبارديين والبربر، وهذا النظام يعتبر سابقة لما اتخذه هرقل من إجراء لحماية الأمبراطورية من الأخطار الخارجية، فالأقاليم التي لم يمسها العدو بأي سوء أو ضرر جرى تقسيمها إلى أقاليم عسكرية كبيرة، وهي المعروفة بالأجناد، يتولى كل منها قائد عسكري – استراتيجوس – يقابل ما كان معروفاً في النظام القديم بالأرخون وقد احتفظ الـــ Proconsul برئاسة الإدارة المدنية في الأقليم، وكانت الأجناد أو الثغر تضم عدداً غير قليل من الأقاليم وبذلك اتخذت التنظيمات الإدارية الجديدة طابعاً عسكرياً خالصاً وفق تعبير أهم مؤرخي الدولة البيزنطية أوستروكورسكي، والواقع أن جوهر هذا النظام يتمثل في استقرار الجند في أقاليم آسيا الصغرى "تركيا" ولذلك جرى إطلاق لفظة جُند أو أجناد على الأقاليم الحربية التي نشأت حديثاً يومذاك، وترتب على ذلك أن اللفظ كان يُطلق على

لواء من الجند فأصبح يُطلق على الأرض التي تحتلها القوات العسكرية، والتي أعطيت للعسكر بشرط أن تكون الخدمة العسكرية مجانية، والواقع أن التنظيم الجديد لم يكن في جوهره سوى إدماج النظام الحربي القديم المعروف بجيش الأطراف في نظام الأرخونة إذ استقر الجند في الأراضي كما حدث في جيش الأطراف، وتغلب العامل العسكري في الإدارة تماماً كما جرى في الأرخونيات، وترتب على تنظيم الأمبراطور هرقل أن صارت أملاك الأمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى والبلاد المجاورة، تؤلف ثغور: الأرمانيك والأناتوليك. وثغر الأوسيكيون، وثغر الكاراباسيني.

١- الأرمانيك: يقع إلى الشمال الشرقي من آسيا الصغرى ويتاخم أرمينيا.

٢- الأناثوليك: مشتق من اللفظة اليونمانية أناتولي ومعناها الشرق.

٣- الأسيكيون: وهو يتألف من الحرس الإمبراطوري وموقعه قرب بحر مرمره.

٤- الكاراباسيني: يقع على الساحل الجنوبي.

* أما الأقاليم الواقعة إلى الشرق من هذه الجهات فكانت في أيدي الفرس ثم وقعت في أيدي العرب، فبات من المستحيل إدخال نظام الثغور إلى هذه الجهات.

كذلك تطبيق هذا النظام في شبه جزيرة البلقان استحال بسبب الكوارث والدمار الذي أصاب شبه هذه الجزيرة، ويُعتبر نظام الإقطاع الحربي والأجناد، الاساس الذي قام عليه ذلك الجيش الوطني القوي، وهذا النظام هو الذي حرر الأمبراطورية من الجنود الأجانب المأجورين، والذين كلفوا الدولة الأموال الطائلة فلم يكن العرض متكافئاً مع الطلب، ورغم أن الجيش البيزنطي كان يتكون من فرق عسكرية من سكان آسيا الصغرى وجهات القوقاز المشهورين بالميل إلى القتال.

واستجد عدد كبير من الفلاحين إلى البيزنطيين الذين أصبحوا جنوداً إضافة إلى الصقالبة والفلاحين الملتزمين بالخدمة العسكرية، وبفضل الدماء التي ضختها في الجيش، حدث تطور كبير في النظام الحربي والإداري البيزنطي، فالجندي الفلاح المقيم في الثغور أصبح عنصراً ثابتاً في قوات الجيش البيزنطي، ومنحه اقطاعه الوسائل الاقتصادية التي تكفل له سُبل العيش، فضلاً عن تـقاضيه راتباً منتظماً فقد كان كُل جندي يخرج بسلاحه وفرسه حال دعوته للنضال، وبالتالي فإن هذا النظام خلَّص الخزينة من عبء ثقيل، كما أنه ساعد على تدعيم مكانة الملاك الأحرار.

النظام الإداري في بيزنطة

يتربع الأمبراطور على قمة الهرم الإداري، فأعماله كانت كثيرة ولكن يساعده في اتخاذ قرارته الرئيسية مجلس صغير وهو لجنة فرعية من السناتو، وأعمال هذه اللجنة كانت مهمة جداً كما حدث في اجتماع (النيقا) يوم أنفذت تيودورا عرش زوجها، ويوم أعلن ميخائيل الحرب على البلغار.

الألــــقــــــاب:

وكان .الأمبراطور على رأس كل شيء، ثم يليه أعيان الأمبراطورية وموظفوها مُرتَّبين حسب منزلتهم وألقابهم والتي لم تكن وراثية، على أن معظم وظائف الدولة كانت تحمل معها رتبة معينة. وكانت النزعة الغالبة على الأمبراطورية هي جعل الوظائف الرسمية مناصب شرف مع ضرورة صَبْغ الإدارة بالصباغ البيروقراطي، ولكن لما زادت الألقاب هبطت قيمتها المعنوية والمادية، وتطلّب الأمر إنشاءَ ألقابٍ جديدة.

وأعضاء الأسرة الأمبراطورية لا يُـقـلّدون مناصب من هذا النوع، وهم يُمنحون ألقاباً عالية. وكان ولي العهد يتوج أمبراطوراً في حياة سلفه، ولقب قيصر دون لقب بطريق، ويحمل لقب القيصر

مَنْ سيصبح أمبراطوراً، ثم حلَّ مكان القيصر لقب (الحكم الجليل) وأعلى الألقاب لأمير هو لقب (المستبد)، وأيضاً لقب (أنبل النبلاء)، وهناك أيضاً لقب عميد القيصر وأصبح هذا اللقب فيما بعد لمن هو من غير أسرة الأمبراطور. وتبعها ألقاب (الجليل) و(الجليل الأعلى) وأصحاب الألقاب يسمح لهم تناول الغذاء على طاولة الملك ومعهم كبرى الوصيفات.

وأعلى لقب هو لقب البطريق ثم ظهر لقب الماجستر وبرويدروس، وللخصيان أيضاً ألقاب، والخصى البطريق أعلى من البطريق العادي. وكان للخصيان ثمانُ ألقابٍ ولهم شاراتهم الخاصة.

الولايات:

كانت الأمبراطورية مقسمة إلى أربع ولايات يحكمها (البريطوريون) وهم أعلى فئة من موظفي الدولة. ولهم سلطة نائب الملك في الشؤون الادارية والمالية والقضائية، وتعيين حكام المقاطعات وعزلهم من اختصاصهم وأيضاً يضعون بعض التشريعات. طبعاً مع إشراف الأمبراطور على ولايتي أفريقيا وآسيا ويحمل كل منهما لقب بروقنصل. وهناك حكام الأقسام الإدارية ويسمون (الفيكار) وليس لهم سلطة على الجيش. أما القسطنطنية

وروما فكانتا تحت إشراف والي المدينة، ويلي الولاة البريطورين مسؤولوا الشرطة والأمن وتوزيع الخبز في العاصمة.

البلاط:

في البلاط يوجد الوزير الأعلى للقضاء، وكويستور القصر المقدس ووزير المالية وهما: كوند الهبات المقدسة الذي يدير الايرادات والمصروفات العامة، وكوند الأملاك الخاصة (للأمبراطور). والوزير الأكبر هو رئيس دواوين الموظفين وهو المسؤول عنهم. أما مدير البريد فهو المهيمن على المخابرات والمراسم والخارجية. ويحيط الأمبراطور مجموعة من السكرتاريا أو وزراء الدولة وقدر عدد الموظفين بنحو عشرة آلاف في القرن الخامس. وعُرِفَ شراءُ الوظائف ولكن جستنيان أعاد تنظيم البلاد ومنع ذلك، ومنح كل حاكم راتباً يعيش منه. وهناك وظيفة حامي المدينة، وهذه الوظيفة يتم فيها الانتخاب، وحامى المدينة ينظر حتى في صغار القضايا. وأعيد تنظيم الولايات وابتكرت وظيفة الكويستور لمنع البطالة. وألغي منصب القنصلية وهي رتبة شرف التي كانت تستدعي نفقات كثيرة.

وكنتيجة لإعادة تنظيم المقاطعات في بيزنطة، ظهرت وظيفة تجمع بين السلطة المدنية والعسكرية أعطيت لحكام المقاطعات

القريبة من العدو، وصارت تعرف بإسم اللواء العسكري (حسب إسم الفرق) وصار هناك خمسةً وعشرين لواءً مقسماً في الشرق والغرب. وديوان القائد يحتوي على احدى عشرة طبقة من الموظفين.

ويشمل التنظيم الاداري وظيفة القاضي وهو والي المدينة (الأيرخوس) وهو أعلى منصب بعد الأمبراطور، ووظيفة مستشار دار الوالي لضبط شؤون النقابات والأشراف على اللوائح التجارية، والإشراف على السجون، وله نائب يسمى الكويستور وهو الذي يتولى إعداد مشاريع القوانين، ويترأس محكمة الاستئناف في القضايا المرفوعة ضد النبلاء وهو أيضاً الوكيل العام للشعب وعليه ختم الوصايا وفضّها وإدارة أملاك القصار، ويهتم الكويستور بقضايا التزوير بإيجاد العمل للعاطلين. ويشمل التنظيم الإداري أيضاً وظيفة قاضي الظلامات المرفوعة للملك. وأيضاً وظيفة الكتاب وهم وزراء المالية، فقد كان هناك سبع خزائن مالية، وصارت مالية الدولة تقسم إلى عدد من الدواوين موضوعة تحت الرئاسة العليا لوزير المالية الأوْحد، وتحت رئاسته المراقبون على السباق والضرائب وأُعْطِيات الجند ومزارع الأمبراطورية ومصانع الدولة وسقايات الماء والجمارك والسكرتاريا الأمبراطوري والخزنة، وأهم المناصب في الدولة البيزنطية منصب مراقب مستشار الخيل والبريد، وهو يقابل

الأمبراطور يومياً وصار المستشار بل رئيس الوزراء أو المستشار الأعظم وحلّ فيما بعد منصب المحاسب الأعظم محل وزير المالية.

أما وظائف القصر فهي للخصيان وكان لكل قصر كبير المعاونين ويساعده معاون ثانٍ، ومهمته الإشراف على شؤون الحفلات وأثاث البلاط، وهناك مشرفون على الألبسة والطعام، وصار كبير الخصيان يسمى كبير الأمناء وسمي في أوائل القرن العاشر الوزير الأكبر، وميزة الخصيان إنهم لهم يكن لهم عقب يأتمرون من أجله.

وهناك موظف لتأمين الإتصال بين الأمبراطور والكنيسة ولقد بقي هذا النظام الإداري حتى مجيء الفرنجة وتحطيم آداة الحكم سنة ١٢٠٤.

الضرائب والنفقات:

والواقع أن هذا الجهاز الإداري كان باهظ النفقات وهي يستوفى من الضرائب التي كانت على نوعين: ضرائب الأرض وضرائب الرؤوس. وقد أعفيت الأديرة من الضرائب وهذه الضرائب تدوّن على السجلات. وكانت الضرائب عيناً ثم صارت نقداً. وكان هناك نظام الضرائب الجماعية (المجتمع بأكمله مسؤول عن دفع الضرائب) ثم أدخل نظام الإلتزام التضامني لدفع الضريبة.

وضريبة الرؤوس لعلها قاصرة على غير المسيحيين وكانت هناك ضريبة على المنازل وخاصة في الأماكن المتاخمة للعدو. أضف إلى ذلك ضرائب التَّركات. وهناك ضرائب غير مباشرة وهي من الجمارك والأسواق والعشور ورسم التمغة على الإيصالات ورسوم الإستيراد والتصدير على البضائع، إضافة إلى الرسوم على بيع الأرقاء، ويوجد أيضاً ضريبة لإصلاح أسوار القسطنطينية، وكانت الدولة تستكثر الأموال من بيع الألقاب واحتكار الحرير، ومنع نقفور الربا وصار هو يقرض الناس.

القوانين والتشريعات البيزنطية

ومما كان يساعد الحكومة على إداء واجبها ذلك الإحترام للقانون الذي ورثته بيزنطة عن روما، واختفى الظلم بين الناس، فالأمبراطور هو القاضي الأعلى وهو مصدر لكل التشريعات وبالإمكان اللجوء إليه بالمطالب والاستئناف، واهتم بعض الأباطرة بالاستماع إلى الناس كجستنيان، وكان قاضي المظالم يتلقى شكاوى الناس وينقلها إلى الأمبراطور. أما في العاصمة فالأمر مناط بالوالي الكويستور، وفي المقاطعات هناك قضاة في كل مقاطعة للقضايا العادية، أما القضايا الخطيرة فتحول إلى القسطنطينية. وأنشأ دار الضيافة لإستقبال المتقاضين، أما القضايا مع رجال الدين فيرجع إلى الكنيسة ومحاكمها. وهذه القوانين كانت بإزدياد سنوي. فظهرت الحاجة لإيجاد مجموعة قوانين موَّحدة ولقد بدأ التفكير بجمعها منذ أيام قسطنطين الكبير سنة ٤٣٨ حيث صدرت مجموعة من القوانين تتناول الشؤون الإدارية والعسكرية والحياة الدينية وتقع في ١٦ كتاباً. وأثناء حكم دقلديانوس بدأ الاهتمام بإعادة جمع القوانين نظراً لكثرة الإضطرابات في الجهاز القضائي، فأعاد جمع قوانين قسطنطين وسميت (بالمتجددات) ورتبت زمنياً. وحاول دقلديانوس التجديد في القوانين فقام بجمع خمسة فقهاء، ولكن وقع التناقض والتضارب بينهم لأن أحكامهم باتت قديمة لا تتماشى مع العصر حينذاك، لذا كان لا بد

من إجراء مراجعة رسمية لكل النظام القضائي في الأمبراطورية البيزنطية.

والواقع أن أهمية قانون المتجددات، أنه سيصبح أساساً لما حدث زمن جستنيان من الإهتمام بالقوانين، وكان له الأثر في تشريعات أوروبا الغربية، وتقررت هذه القوانين بإسم الأمبراطورين تيودوسيوس الثاني وفالنتنيان الثالث ويعتبر ذلك من مظاهر وحدة الأمبراطورية، رغم أن الأخذ بهذه القوانين في الشطر الغربي لم تكن موضوع اهتمام، وسيؤدي ذلك فيما بعد إلى اتساع الهوة بين القسطنطينية وروما.

واهتمام بيزنطة بالقوانين تجلى أيضاً بأعمال الأمبراطور جستنيان والذي قام بمهمة تصنيف القوانين الأمبراطورية وجمعهاحتى عصره. وسنة ٥٢٨ ألف الأمبراطور لجنة من عشرة فقهاء من بينهم تريبونيان، فقامت اللجنة بمراجعة القوانين السابقة.

وصدرت (قوانين جستنيان) وتألفت من عشرة كتب، شملت كل ما صدر من قوانين منذ زمن الأمبراطور هادريان إلى زمن جستنيان. وقرأت اللجنة حوالي ألفي كتاب، فأبعدت ما ليس له نفع، ونقحت وصححت، ولقد تم العمل في ثلاث سنوات، وانقسمت الكتب العشرة إلى خمسين كتاباً، واتخذت إسم (المختار)، وبسبب ضخامة العمل والسرعة في إنجازه فلقد ترتب على ذلك وجود الأخطاء

والتكرار والمتناقضات وإلغاء بعض النصوص، ورغم ذلك حَفظَ قانون جستنيان للأجيال كل القوانين الرومانية القديمة.

ونظراً لضخامة العمل، فإن الشبان الدارسين للقانون وجدوا صعوبة في استيعاب المادة، لذا صار من المحتم إعداد موجز يسهل الإستعانة به. فتم إعداد الموجز في القانون المدني، وينقسم إلى أربعة كتب معروفة بإسم (الشرائع).

ولكن قانون جستنيان لم يتوقف عند المختار والشرائع، إذ صدرت مرسومات عديدة، وتقرر أيضاً إلغاء بعض القوانين التي لم تعد تصلح لزمانهم. لذا ترتب على ذلك إعادة مراجعة قانون جستنيان سنة ٥٣٤ واستكماله. ولقد وقع العمل في اثني عشر كتاباً، وهذه (المرسومات) الجديدة شملت الفترة من زمن هادريان إلى جستنيان حتى سنة ٥٣٤. وألغيت قوانين جستنيان التي كتبت وجمعت سنة ٥٢٨.

والواقع أن كل ما صدر بعد المرسومات سمي (بالمتجددات) وكتب باللغة اليونانية، بينما كتب القوانين والمختارات والشرائع كتبت باللغة اللاتينية.

إذن قام جستنيان بوضع القانون والمختار والشرائع والمرسومات والمتجددات، وعرفت في العصور الوسطى بإسم مجموعة القانون المدني وتعرف حتى الآن بهذا الإسم.

ونظراً لكتابتها باللغة اللاتينية فكان من الصعب تعميقها لذا كتبت المتجددات باللغة اليونانية تسهيلاً لإنتشارها بين الناس، ولقد غلب الطابع الشرقي المسيحي على قانون جستنيان، وجاءت المتجددات معبرةً عن الأحوال الاجتماعية المعاصرة وحاجاتها، فمثلاً قانون جستنيان يجيز الحرية والمساواة لجميع الناس، بفضل هذا القانون، إضافة إلى أثر المسيحية، تحسن وضع الأرقاء. وصار تحريرهم سهلاً، لأن تسخيرهم كان يتوقف على الأحوال الإقتصادية.

وصارت هذه القوانين سنداً شرعياً لسلطة الأمبراطور، وأدت إلى تطور الفكر السياسي في الغرب اليزنطي، وصار القانون الروماني هو الأساس في الأمبراطورية البيزنطية الشرقية.

ونتيجة اهتمام الأمبراطور جستنيان بالقانون ازدهرت ثلاث مدارس للقانون الأولى في القسطنطينية والثانية في روما والثالثة في بيروت. وأغلقت كل المدارس الأخرى سنة ٥٥١ وانتقلت مدرسة بيروت إلى صيدا بسبب الزلازل الذي دمر المدرسة وقد فقدت أهميتها فيما بعد.

واستمر الإهتمام بتجديد وجمع القوانين أثناء حكم ليو الثالث الذي عرف عنه بأنه من المشرعين الأكفّاء، والواقع أن ما أصدره الأمبراطور جستنيان من قوانين لم تستفد منه كل الأقاليم لأنه صدر باللغة اللاتينية، وبعد أن فقدت بيزنطة أقاليهما الشرقية (الشام - مصر - افريقيا) أضحت اللغة اليونانية هي السائدة فصار من اللازم تصنيف كتاب باللغة اليونانية. فأصدر ليو الثالث قانوناً اشتهر بإسم الإكلوجا ومعناه المختار.

وتحوي الإكلوجا ثماني عشر موضوعاً تدور حول المواضيع المدنية وبعض المواضيع الجنائية. فلقد تناولت الإكلوجا (الزواج - الخطبة - المهر - الوصايا وعتق الأرقاء البيع والشراء والقرض والرهن والعقود...) وما يتعلق بالقانون الجنائي فلا يتعدى ما جاء من العقوبات مثل الجدع والشل وبتر الأيدي وقطع اللسان وذلك بدلاً من الإعدام.

وركزت الإكلوجا على ثلاثة تشريعات: قانون الجندي وقانون الفلاح وقانون الملاح.

وتناول قانون الفلاح ما يقع بين المشتغلين بالزراعة من جرائم مثل سرقة الأخشاب والحقول والبساتين، ومخالفة رعاة الماشية للوائح وما تتعرض له الماشية من الأذى أو ما تجلبه من ضررٍ بالإضافة إلى ظهور تشريعات جديدة في هذا القانون مثلاً أن يصبح

للفلاح ملكية خاصة ويشترك في الملكية العامة وألغيت السُخْرة وأعطي للفلاح حرية التنقل، ويعتبر ذلك نقطة تحول في التاريخ الاقتصادي لبيزنطة.

وفيما يتعلق بقانون الجندي فهو يشير إلى ما يتعرض له الجندي من عقوبات بسبب العصيان والتمرد ومخالفة الأوامر والهروب أو ارتكاب الزنا.

بالنسبة لقانون الملاح أو قانون بحر رودوس فهو لتنظيم الملاحة التجارية لجهة تحمل مالك السفينة والتاجر للخسائر الناجمة عن قذف جانب من حمولتها في حال تعرضها للخطر من أجل أمن السفينة، إضافة إلى قضية القرصنة البحرية.

واستمر أباطرة بيزنطة بالاهتمام بالتشريعات فلقد عمل بازيل الأول على إنجاز تشريعات وتصحيح وتنقية القانون القديم، وقام بجمع مختارات مأخوذة من المجموعة الكبيرة للقوانين السائدة والأكثر إستعمالاً سواء في القانون المدني أو في القانون العام، والغرض من ذلك إيجاد كتاب علمي للإستعمال العام يلبي حاجة المواطن لمعرفة ما يعترضه من القضايا القانونية في حياته اليومية.

والواقع أن الأمبراطور بازيل الأول حاول البعد عن قانون ليو الثالث وتحطيم قانون الأيكلوجا، ورغم ذلك أخذ من الأيكلوجا القانون

الميسر أو (المجمل) فيما يختص بالميراث والقانون العام. وانتشر (المجمل) إنتشاراً واسعاً في بيزنطة، ولقد ترجم إلى اللغة السلافية.

وأصدر بازيل قانون الأباناجوجة أو (المدخل) وهو كتاب مختصر لجميع القوانين، وتعتمد الأباناجوجه على الأيكلوجا وأخذت منها قانون الزواج. وفي الأباناجوجه قوانين مبتكرة فيما يختص بحقوق وواجبات الأمبراطور والبطريق وغيرها من المناصب العلمانية والدينية الكبيرة، وفسرت الأباناجوجه نظام الحكم في الدولة والكنيسة على أنه وحدة تتكون من وحدات وأعضاء كثيرين يرأسها الأمبراطور والبطريق كأعلى سلطتين، فالعاهل المدني عليه تأمين رخاء رعاياه والعاهل الديني عليه تأمين السعادة الروحية. إذن الأباناجوجه تنهج الطرق الفضلى لتأمين العلاقة المثلى بين السلطتين المدنية والدينية.

والواقع أن التشريعات والقوانين كانت تتجدد باستمرار في بيزنطه، وذلك من أجل المزيد من العدالة والاستقرار، لذا اهتم ليو السادس بالتشريعات ووضع القوانين. وظهرت قوانين الباسيليكا التي تتألف من ستين فصلاً (ست أجزاء) ودونت باللغة اليونانية، وكانت عملية وسهلة التطبيق. ذلك أ ن كل مواد القانون جمعت في عمل واحد، ونظمت تنظيماً دقيقاً ومنهجياً، بينما تناولت قوانين جستنيان الموضوع الواحد في أكثر من موضع وأوضحت الباسيليكا

في تعليقها أن ذلك هو أكبر أخطاء مجموعة جستنيان، ولهذا لا نعجب إن كانت الباسيليكا قد أبعدت مجموعة جستنيان عن الاستعمال، وصارت الباسليليكا المرجع في دراسة القانون في العصور الوسطى، وسرعان ما أضيف إلى النص، العديد من الشروحات، أهمها ما يسمى بالشروحات القديمة، وفي القرن الثالث عشر وضع فهرساً للباسيليكا ولقد ركزت الباسيليكا على القانون الكنسي والقانون المدني.

بالإضافة إلى الباسيليكا أصدر ليو السادس المتجددات التي تعتمد على متجددات جستنيان وتشتمل على القوانين القديمة ولكن بصورة منقّحة وتتناول عدداً من الموضوعات المتوالية دون منهج معين. والواقع أن متجددات ليو السادس ألغيت فيها الحقوق القديمة لمجلس البلاط ومجلس الشيوخ. وألغت تشريعات ليو السادس حق الجار في الشفعة أي بشراء ما يجاوره في الملك، وصار للجيران الحق في طرد الفلاحين من الأرض إذا قاموا بتسديد ثمن شراء الأرض، وكذلك أعطى القانون للطبقة الأرستقراطية الحق في تملك أراضي الفلاحين وازداد نفوذ الأرستقراطية الإقطاعية، مما ترتب عليه نضال الأباطرة فيما بعد ضد الإقطاع والأرستقراطية. وأعطت تشريعات ليو السادس للحاكم السلطة المطلقة، وأصبح سلطة السناتو صورية.

ووضعت السلطة العليا في يد الأمبراطور وجهازه الحربي والإداري، فالأمبراطور مختار من الرب، وهو القائد الأعلى للجيش، والقاضي الأعلى والمشرع الوحيد، وحامي الكنيسة والعقيدة المسيحية، وصاحب قرار الحرب والسلام وتشريعاته وحياً من الرب لا تلغى. إذن سلطته مطلقة لا يقيدها سوى مبادئ الأخلاق والتقاليد والشؤون الدينية بصفته حام للكنيسة وليس رئيسها، فالأمبراطور يعين البطريق لأن الأمبراطور هو المشرع للقوانين، لذا بات شريكاً في حكم الكنيسة، وله حق تعيين وعزل الموظفين المدنيين إلا رجال الدين لأن ذلك يحتاج إلى موافقة مجلس رجال الدين.

ويستطيع الأمبراطور تغيير القوانين التي يضعها سواه من الأباطرة، ولكنه لا يستطيع تغيير قرارات المجامع الدينية لأن مجلس الكنيسة هو أكبر مجمع للاستئناف في الكنيسة، وهو فقط المختص بإصدار القرارات المتصلة بالعقيدة، وللأمبراطور الحق فقط بحماية العقيدة. في حين أننا نلاحظ سلطة السناتو قد إنعدمت تجاه الأمبراطور.. بينما نلاحظ أن سلطة الكنيسة كانت تتقدم جنباً إلى جنب مع سلطة الأمبراطور. والكنيسة دائماً في حالة صراع خفي أو علني مع الأمبراطور من أجل التخلص من سلطته...

الأوضاع الاقتصادية في بيزنطه

التـــجـــــــارة:

إن كل ازدهار بيزنطة ونظامها الإداري والمالي الدقيق مدينٌ لتلك التجارة التي مثَّلت تجارة العصور الوسطى.

والسبب في ازدهار تلك التجارة موقع القسطنطينية ما بين الشمال والجنوب وما بين الشرق والغرب، إضافة إلى براعة سكانها من اليونان والأرمن، لذا بقيت القسطنطينية قروناً مختزنة للثروة. ولقد تركزت كتلة التجارة الأساسية ما بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، وكانت دائرة البحر المتوسط تزود نفسها بالأغذية، وكلما إزداد الترف أكثر، إزداد الطلب على الأفاوي والأعشاب والتوابل والحرير.

وكانت طرق التجارة مختلفة فمنها طريق التركستان إلى بحر قزوين ثم إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود، أو طريق تركتسان بحر قزوين ثم إيران نصبين أو عبر طريق أرمينية إلى طرابزون، وقد تجتاز الهند وأفغانستان ووسط فارس إلى نصبين أو إلى سوريا، أو لعلها تقطع طريقها كله بحراً وتمضي إلى البحر الأحمر فمصر، ومن أجل تجنب طريق فارس التي كانت تهدد طرق التجارة قديماً

بسبب رسومها الجمركية العالية وبسبب الحروب كان لا بد من سلك طريق الشمال عبر السهوب أو طريق الجنوب وهو طريق بحري بحاجة إلى أسطول في شرق السويس، ولقد بذلت بيزنطة أقصى طرقها الديبلوماسية لضمان استمرار الطريقين لتجارتهم وخاصة مع قبائل الهون والتركية أو مع الأحباش في البحر الأحمر.

وازدهرت التجارة البيزنطية في القرن السادس الميلادي. فالحرير كان لا زال يسير عبر الطريق البرية من خلال فارس إلى محطتي المكوس الأمبراطوريتين عند نصبين ودارا، ثم ينقل ليصنّع في القسطنطينية أو في مصانع الحرير في بيروت وصور. وأصبحت جزيرة سيلان مركزاً للمقايضة المالية لتجار الشرق، وتجمَّعت فيها كل بضائع الشرق الأقصى. وكان الحرير يمر بفارس أما بقية السلع فتحمل إلى الحبشة التي يقيم فيها مراقب لحسابات بيزنطة، إضافة إلى زيارته للهند كل سنة. ولقد أقامت في سيلان جاليات نسطورية مسيحية وفي جزيرة سومطرة جاليات يونانية. وصارت العملة البيزنطية هي المفضلة لدى التجار. وكانت تجارة الحبشة تنتقل إلى أفريقيا حيث كان يصاحبهم تجار من بيزنطه. ويعودون محملين بالسبائك الذهبية. حيث يقوم تجار بلاد الشام بتوزيع البضائع الشرقية في كل أنحاء البحر المتوسط وكانت لهم محطاتهم المنتشرة في مدن المتوسط.

وفي عهد جستنيان توقفت تجارة الحرير بسبب حروبه مع الفرس، وحاول إبقاء سعره منخفضاً، وأخيراً قرر شراء مصانع الحرير وجعلها حكراً أمبراطورياً، وبسبب الحروب الفارسية حوّل مرور تجارة الحرير عن طريق السهوب ولكنه فشل في ذلك. حتى وصل راهبان نسطوريان ومعهما في جوف عكازهما سر دودة القز وبيضها. فانخفض استيراد الحرير في الصين... ولما جاء الفتح الإسلامي لسوريا ومصر، تأثرت تجارة بيزنطة، ولكن الدمار ما لبث أن حلّ بالبحرية السورية، فتركت تجارة بجر إيجه لبحارة اليونان بعد أن قطعت المواصلات مع القسطنطينية. ولكن في القرن الثامن عادت التجارة البيزنطية لتسير عن طريق مصر وأفريقيا وصقليه ثم إلى المنطقة الإيجية. كذلك السلع الشرقية سلكت الطريق البري عبر آسيا الصغرى أو إلى البحر الأسود عند طرابرزون حيث السفن اليونانية تحملها لتفرغ في القسطنطينية وكانت صناعة الحرير تتطور، وصار للمصنع الأمبراطوري صفة الاحتكار العالمي وكان الكل يتزاحم لشرائه.

بلغت التجارة البيزنطية أوجها في القرنين التاسع والعاشر، وكان أهمها، تجارة البحر الأسود مقارنة مع تجارة المتوسط الشرقي، وقد توقف استيراد القمح من مصر منذ الفتح الإسلامي. وذلك مع تطور الزراعة في آسيا الصغرى، إضافة إلى القرصنة

الإسلامية في بحر إيجه. واستمرت تجارة الشرق الأقصى عبر بلاد فارس وأرمينيا إلى طرابزون أو إلى أعالي الخليج الفارسي ثم إلى بغداد، ثم انطلقت إلى المرفأ نفسه ولقد استولى العرب على تجارة المحيط الهندي، وسقطت أمبرطورية الحبشة، ورفضت إعادة الطريق التجاري إلى السويس، لذا صار ميناء طرابزون ميناء الشرق، وبعد استرداد إنطاكية، تحول القسم الأكبر من التجارة عن طريق حلب إلى انطاكية وسلوقية على البحر. أما في الشمال فكان الخزر يجلبون تجارة السهوب من فراء ورقيق وسمك مجفف إلى خيرسون في القرم أو تحملها السفن من الدنيبر إلى القسطنطينه، في حين أن سلع البلطيق وفراء أوروبا الوسطى ومعادنها كانت تنتقل إلى سالونيك ثم تحملها سفن الروم إلى كل المناطق، وصارت باري من موانئ بيزنطة في إيطاليا حيث كان يقوم الأسطول المحلي بالاهتمام بالتجارة. مما أبعد سفن اليونان عن الملاحة في غرب أوروبا فازداد نشاط إيطاليا التجاري. ولم ينقض القرن العاشر إلا وكان لسفن إيطاليا التجارية علاقات فيما وراء البحار وظهر تجار نابولي وجنوى وبيزا. وصار لأمالفي مقيم دائم في القسطنطينية وقصر لأنتاليون (الشريف) أمالفي وجالية مهمة.

والواقع أن ميناء إيطاليا المهم هو البندقية ولكن عيب تجارها التعامل مع العرب رغم حرمانات البابا، ولقد اعطاهم باسيل الثاني

امتيازات لقاء مساعدتهم له في حروبه، وحراستهم للبحر الأدرياتي. وأهم سلعهم التجارية الرقيق وأسواقه التي كانت رائجة في إيطاليا، وكانت مراكب البندقية تحمل البريد.

وبدأت التجارة البيزنطية في القرن العاشر بالانهيار بسبب إستيلاء السلاجقة على معظم آسيا الصغرى، وهو أمر قضى على طريقة تنظيم الجيش والأسطول. وفي سنة ١١٤٧ استولى النورمان على مصانع الحرير وتم نقل دود القز إلى إيطاليا.

وبدأت الحروب الصليبية فتغيرت الطرق التجارية ولم تعد البضائع تنقل إلى طرابزون لأن السلاجقة سدوا الطرق، بل كانت تنقل إلى السفن في موانئ سوريا اللاتينية حيث كانت تحملها السفن الإيطالية إلى أوروبا مباشرة تجنباً لرسوم القسطنطينية، لذا لم يبق بالقسطنطينية سوى تجارة الشمال التي كانت تزداد أهمية نظراً لنشاط تجارة الشرق الأقصى هناك، حيث صارت التجارة براً من التركستان إلى البحر الأسود، ولكن الظروف السياسية وضعت هذه الطريق بيد الإيطاليين في مقابل إعادة القسطنطينية، وأقام الإيطاليون هيئات محلية في موانئ مختلفة، وازداد عددهم فتعرضوا لمذابح من قبل السكان البيزنطيين، فسحبت إمتيازاتهم مما أدى إلى حملة صليبية رابعة، والواقع أن البندقية استفادت من الحملات الصليبية التي زالت

اماراتها لاحقاً، في حين أن تجارة البندقية ومستعمراتها إزدهرت في كل موانئ المتوسط والبحر الأسود.

واسترد آل باليولوجوس امبرطوريتهم بمساعدة جنوى، فحصلت على قسم من تجارة البحر الأسود ضمن مدينتين فقط مما قضى على تجارة اليونانيين، واستفادت جنوى من تجارة الأمبراطورية المغولية، بينما أضمحلّت القسطنطينية واحتفظت سالونيك بموقعها التجاري، وتحكّم تجار اليونان بالبلقان ولكن النقل البحري أصبح بأيدي إيطاليا كذلك تجارة طرابيزون حيث التجارة الفارسية والقوقازية والتي يحملها أهل جنوى إلى الغرب، ورغم ذلك فلقد كانت هذه الطرق التجارية تدر الأموال على خزانة بيزنطة، فنسبة عشرة بالمائة ١٠٪ كانت تفرض على الصادرات والواردات، فالواردات عند البوسفور والصادرات تصدر من القسطنطينية. وجيران الأمبراطورية من الثراء بحيث يدفعون بصورة متصلة. ولكن عندما يكون الجيران بوضع مضطرب كما كان في القرن السابع أو حتى في الشرق في القرن الحادي عشر فقد عانت الأمبراطورية، لأن مكوسها تجعل التجارة العابرة باهظة التكاليف.

وقد تضايقت بيزنطة تجارياً لأن مصنوعاتها من أدوات الترف كالحرير والصياغة والدرراليتيمة والخمور وأكواب الذهب كانت مراقبة وممنوع شيوعها خارج الأمبراطورية، مع الإحتفاظ بسعرها

وندرتها وهناك أقمشة لم تكن تباع في السوق وإنما ترسل كهدايا إلى البلاطات الملكية، ولطالما حاولت إيطاليا تهريب الحرير، ولكن السلطات كانت واعية التي منعت تهريب الحرير بدون ختم الدولة.

وكانت صناعة الحرير منتشرة في صور وبيروت وأيضاً في طيبة وكورنثه وصناعة البسط في البليونيز وتصدر إلى إيطاليا.

وقام والي المدينة بالإشراف على التجار الأجانب، وكانوا يأتون إلى ديوانه لدى وصولهم لتحديد اقامتهم بثلاثة أشهر فقط، وكل بضاعة تترك بعد إنتهاء المدة يبيعها الوالي ويحتفظ بالمال حتى السنة التالية، وكل مشترياتهم تخضع للوائح الجمركية، ولطالما أعفت بيزنطة تجار البندقية من العشور مقابل خدمات عسكرية محددة.

والواقع أن زيادة الإمتيازات التجارية للأجانب كان يعني إنهيار التجارة البيزنطية، ولطالما أدت الاحتكارات والامتيازات التجارية إلى ما يثير الفضيحة وخاصة بين بيزنطه والبلغار كإحتكار بعض التجار لتجارة سالونيك، لذا كانت هناك قيوداً ضخمة تحول دون الاستغلال.

والواقع أن تسليف النقود كان يتم بنسبة محددة من الأرباح أي بنسبة ١٢٪ وذلك لأعمال تجارية بحرية، والصاغة يقرضون بنسبة ٨٪، والناس العاديين بنسبة ٦٪ أما الأغنياء فنسبة ٤٪.

وصار يفضل القروض للأراضي لأنها بعيدة عن أخطار البحار والقرصنة ولكن القانون الرودوسي حمى التجارة البحرية إلى حد ما.

وكانت الرقابة على التجارة والصناعة تتم من قبل النقابات التي يرأسها والي المدينة وينوب عنه (الكويستور). وكانت تحدد ساعات العمل، ومراقبة الأسواق لمنع الاحتكار. والمخابز احتكرت للدولة يتولاها الكويستور، واتهم نقفورفوقاس بأنه اشترى القمح وباعه للنقابة بسعر عالٍ أثناء إحدى المجاعات، وكل مخالفة للوائح النقابية كانت تعاقب بالطرد من عضويتها. وربما بتر الأعضاء، وكان أصحاب السفن ملزمين بالمساعدة في حالة الأزمات والمجاعة. وإذا فُصل أي عامل صحيح الجسم عن العمل قام الكويستور بتأمين عمل له من أعمال المنفعة العامة أو أعطاه صدقة.

أما صناعة الحرير فكانت محتكرة من قبل الدولة ومديرها موظف له أهميته، ولكن المنافسة الأجنبية حطمت هذه التجارة وخاصة من قبل ايطاليا والواقع أن انخفاض سعر العملة عجل في تدهور الأوضاع التجارية البيزنطية.

ويعود السبب في إزدهار التجارة البيزنطية إلى سببين: العملة والديانة المسيحية، أما قضية المسيحية وفوائدها فسببها محدد، ولكن قضية العملة واحتفاظها بقيمتها سليمة مدة ستة قرون شكّل الجانب

المهم في دعم التجارة، وأساس العملة رطل الذهب والعملة المعيارية النوميسما تساوي ٧٢/١ (من رطل الذهب) وكانت النوميسما تنقسم إلى ١٢ ملياريسيا وكل واحدة إلى ١٢ فلساً. واتهم نقفور باستحداث نوميسما منخفضة القيمة، وانقص بوتناياناتس مقدار الذهب في العملة، وقام الكسيوس باستحداث عملة إسمها النومسيماتا يغلب فيها النحاس الأصفر... واستمرت قيمة النوميسماتا بالهبوط في عهد آل كومنين. وكانت عملة البيزانت تلقى القبول في الخارج، ولكنها تعرضت للهبوط حتى لم يبق إلا ٦/١ قيمتها حيث قضي على كل تداول لها في الخارج.

وهكذا أصبحت تجارة بيزنطه بأيدي البندقية، فبعد أن كانت البضائع تدفع عنها مكوساً على أرصفة القسطنطينية صارت تحمل من أمام أسوارها على يد الجنوبيين دون أن تمر بها. وتسافر من طريق بعيد يمر بسوريا على سفن البنادقة. لقد فقدت بيزنطة مركزها التجاري بسبب تدهور عملتها.

الأسواق والنقابات:

ازدهرت حياة واقتصاد المدن بسبب استبداد الحكومة البيزنطية الذي ظهر عبر والي مدينة القسطنطينية، أضف إلى ذلك أن التجار في بيزنطه انتظموا في نقابات مثل نقابة تجار المواشي والجزارين والسمك والخبازين، وترتب على النشاط التجاري في

الشمع والعطور أن أخذت النقابات تمارس تجارة العطور وتجارة التوابل.

وبسبب أهمية تجارة الحرير صار لها نقابات عديدة، وصار هناك تفرقة بين التجارة والمنتجين، وبين الذين يغزلونه والذين ينسجونه ويصبغونه، وبين المشتغلين بتجارة الحرير الخام والحرير الشامي، والملابس المصنوعة من الحرير، وصار لكل منهم نقابة خاصة. وأيضاً نقابات لتجار الجلد والكتان.

ويتبع كذلك ظهور الموثقين (الكتاب) والصيارفه والصاغة الذين ينتمون أيضاً إلى نقابات. مما يدل على أهمية النقابات في نظام الدولة البيزنطية. وهو امتداد لنظام النقابات لدى الدولة الرومانية، ولكن المقيد في النقابة لم يكن محصوراً بمهنته وحرفته، ولم تكن العضوية في النقابة وراثية، كما كان الوضع في الدولة الرومانية، وصار الإلتحاق بالنقابة مرتبط بالميل للحرفة والقدرة على إثبات الذات.

والدولة لها سلطان قوي على النقابات وتخضع لرقابتها. حيث يقوم والي المدينة بتحديد أنواع السلع والسعر للشراء وللمبيع وشجعت التجارة الخارجية والتجارة المحلية وشدد على الصادرات.

والغرض الأساسي للنقابات لم يكن لخدمة المنتجين والتجار، إنما كان لإشراف الحكومة على الحياة الإقتصادية لصالح الحكومة

والمستهلك، لأن الحكومة هي التي تولت تعيين رؤوساء النقابات، وعينت الموظفين الذين اشتهروا بالتفاني في خدمة الدولة.

الأرض:

بعد الفوضى التي ظهرت في القرنين السادس والسابع أعيد تنظيم الأراضي. وكانت الدولة البيزنطية تعطي الجند منحاً من الأراضي مقابل أداء الخدمة العسكرية. ورغم ذلك ظهر صاحب الأرض الغني فصار يتحمل الغني التزامات الفلاح الفقير من الضرائب مقابل استيلائه على محصولاته فيتحول الفلاح إلى مستأجر أو إلى مولى أرض، وعندما يصاب المحصول بالكوارث يصبح الفلاح من العبيد الذين يعملون في الأرض.

أضف إلى ذلك أن الفلاح كان يقدم الأرض بعد موته للكنيسة، والكنيسة كانت تحاول استثمار أموالها بشراء الأراضي الزراعية. فظهر أغنياء الأراضي الجدد من علمانيين وكنسيين، وكانوا يعملون على إفساد نظام الضرائب لصالحهم وخاصة بالنسبة لشراء الأراضي بالشفعة حيث أصدر رومانوس تشريعاً يمنع بموجبه شراء أرض الفقير إلا من فقير مثله وأن يكون من أهل القرية والأقرباء حتى يسمح له بشراء الأراضي. والواقع أن الأمر كان ميؤساً منه لأن الأغنياء فقط هم من كانوا يملكون المال الجاهز لدفع الضرائب، ومع

مرور الزمن أدى الأمر إلى تناقص عدد الملاك الصغار ونمو الاقطاعيات الكبرى.

وقانون الفلاح الذي صدر في القرن الثامن يعطينا صورة لحياة المجتمع البيزنطي. فالقرية تضم الحدائق والكروم إضافة إلى الحقول المزروعة، وتوجد المواشي والمراعي وهي مشاع، والأراضي الزراعية تابعة لملاّك من أفراد القرية.

وهناك قوانين صارمة ضد من يلحق الضرر بممتلكات القرويين وأراضيهم ومزروعاتهم، وكان الإحساس بالإلتزامات نحو الجيران قوياً، سواء في الناحية المادية أو المعنوية، كأن يستضيف البعثة الأمبراطورية فيساعده الجيران في توفير الطعام. وكانت الخدمة العسكرية عبئاً ثقيلاً وخاصة في الثغور حيث يجتاح العدو الأراضي الزراعية فيتلفها، وكانت الشكوى من الضرائب مستمرة ورغم ذلك كان الجابي يعاملهم معاملة حسنة ويمدهم بالطعام أثناء المجاعات.

وظروف الحرب كانت تدفع سكان الأرياف إلى ترك أراضيهم الزراعية. فتسعى الدولة إلى الأتيان بسكان جدد.

وبالرغم من هذه الظروف عمل رومانوس على حماية الأراضي الزراعية في الأمبراطورية من خلال القوانين التي سنها لحماية صغار ملاك الأراضي وضرب الأرستقراطية ولقد واجهت

رومانوس مشكلة شراء الأغنياء لأراضي الفقراء الذين ينزلون إلى مرتبة الأتباع للأرستقراطية الإقطاعية، ولم يقتصر الخطر على زيادة نفوذ الإقطاعيين بل زاد الخطر في تقلص موارد الدولة وضعف الخدمة العسكرية، لأن الدولة كانت تعتمد على الفلاحين اقتصادياً وعسكرياً خاصة وأن الأراضي كانت تمنح لهؤلاء الفلاحين مقابل الخدمة العسكرية، إذن امتصاص الاقطاعية لأراضي الفلاحين معناه إضعاف بيزنطه إقتصادياً وعسكرياً.

لذا أصدر رومانوس سنة ٩٢٢ مجموعة قوانين منها إعادة حق الجيران في التملك بالشفعه، وبالنسبة لإنتقال الملكية من خلال البيع، فقد وضع قانوناً بخمس طبقات: الطبقة الأولى تنقل الملكية بالبيع إلى الأقارب، والثانية إلى الملاك المجاورين، والثالثة لأصحاب الأراضي المتداخلة مع الأراضي المراد بيعها، والرابعة لملاك الأراضي الذي يدفعون ضرائب مماثلة والخامسة للملاك المجاورين ومن يخرج عن هذا القانون من غير الجند يعيد الأراضي دون تعويض مع غرامة مالية، أما الملكيات التابعة للجند فإنها تعاد ولكن بدون غرامة.

ولكن هذا القانون لم ينفذ بسبب سوء الأحوال الطبيعة (شتاء قارس ومجاعة) فباع الفلاحون أراضيهم بسبب المجاعة بأبخس الأثمان، والواقع أن الطبقات الخمس التي أشار إليها القانون كانت فقيرة ومعدمة.

العلوم عند البيزنطيين

كان العلم في بيزنطة ذا مكانة مهمة لدى أفراد المجتمع، فالحصول على قسط وافر من العلم، يعتبر المثل الأعلى للبيزنطيين، والجهل مثير للتهكم، في حين أن من يتقن العلوم يوجه إليه الاحترام والثناء.

اتخذ نمط التعليم طابعاً مستقراً، فكان الطفل بعلم الهلينية اليونانية التي تشمل النحو والآداب والقراءة والكتابة وخاصة أشعار هوميروس وحفظ الألياذه غيباً ثم ينتقل الطالب إلى معرفة البيان ثم الفلسفة والحساب والهندسة والموسيقى والفلك، وربما أضيف إليها دراسة الحقوق والطب وعلم الطبيعة. وكان التعليم الديني يسير جنباً إلى جنب مع التعليم العلماني، ويلقنه رجال الأكليروس، لذا حفظ الأطفال الكتاب المقدس وهو يأتي بعد الألياذه في الأهمية وخاصة بالنسبة للاقتباسات في الأدب البيزنطي.

والمعلم الموظف في المدرسة أو الجامعة كان يمارس أيضاً التعليم الخصوصي. واشتهرت من الجامعات جامعة انطاكية وجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت وجامعة أثينا وجامعة غزه لعلم البيان. واشترط جستنيان أن يكون أساتذة الجامعة من المسيحيين، وفي آخر أيام حكمه قطع رواتبهم، ثم قام فوقاس باغلاق الجامعة نهائياً. وقلّ التعليم في القرن السابع، وصار التعليم على يد أساتذة خصوصيين

وصار الأمراء يلتحقون بالكنيسة لتعلم العلوم اللاهوتية. وفي عهد هرقل أصبح التعليم تحت إشراف الكنيسة، وصارت المدارس ملحقة بالكنيسة والأديرة، حيث يتلقى الطالب تعليم علماني إلى جانب اللاهوتي، وكان التعليم العلماني يعامل بإرتياب.

وفي القرن التاسع بدأت تستقر الأمور وربما تحسن العلاقات مع العرب أدى إلى دراسة علوم الإسلام. وأسس القيصر بارداس جامعة تابعة للدولة في الماجناورا وأشرف عليها الفيلسوف فوتيوس. وفي القرن العاشر نشأ صراع بين اللاتينة والهللينية حتى وصل الأمر إلى الاكتفاء بالكتاب المقدس إلى جانب اليسير من علوم المنطق والاستدلال النظري. ورغم ذلك كان العلم يزداد انتشاراً، حتى أن بلاط الأمبراطور صار أكاديمية لدراسة التاريخ. ونلاحظ أن باسيل الثاني اقفل الجامعة لأن التعليم يكبد الدولة خسائر بلا جدوى، لذابات على الأفراد التعاون مع المربين الخصوصيين أو الإلتحاق بمدارس الكنيسة. ولكن هذا الأمر انعكس سلباً على علم الحقوق فقام قسطنطين التاسع بفتح مدرسة للحقوق سنة ١٠٤٥، واهتم بالفلسفة واللاهوت، وفي سنة ١٢٠٤ أعاد الكاسيوس تأسيس مدارس للأيتام. وكانت جامعات الدولة ومدارسها تابعة للأمبراطور، يتفقد أحوالها من خلال مستوى التلاميذ، وأقبل الناس على الدراسات الكلاسيكية. ولم تكن المكتبة معروفة إلا في الأديرة وهي تضم كتب لاهوتية إلى جانب بعض الكتب العلمانية، وظهر العديد من النساخين

من علمانيين ورهبان. ورغم ذلك ظل سعر الكتاب غالٍ جداً. والواقع أن أعمال النهب سنة ١٢٠٤ نسفت نظام التعليم. فاحرقت الكتب، ولكن ظهرت بوادر النهضة العلمية في بلاط نيقية الذي احتضن العلوم وخاصة في عهد ايرينه التي اعترضت على مسألة الخسوف ثم عادت واعتذرت. ورغم ذلك لم تقم في نيقية أي مدرسة أو جامعة نظامية، وفي أواخر أيام بيزنطة كان الإزدهار العلمي على أشدّه، لذا تطلعوا إلى العلوم الكلاسيكية القديمة وعلوم اللاهوت، وثمة تمازج بين علوم الشرق والغرب، وخاصة في القرنين الرابع والخامس عشر، فسالونيك كانت تعقد فيها حلقات مطالعة ومناقشة، كذلك طرابيزون التي اشتهرت بأبحاثها الفلكية وقد تلقى أطباؤها العلم في فارس.

وليس هناك معلومات حول وجود مدارس تابعة للدولة في أواخر حكم الدولة البيزنطية، ولكن كانت القسطنطينية محط الأنظار لتلقي العلم، ولكن ضمن أكاديميات خاصة إضافة إلى مدارس الكنيسة مع التركيز على اللغة اليونانية.

تعليم البنات:

لقد ظهر في التاريخ البيزنطي نساء عالمات منهن هيباتنا زوجة الأمبرطور تيودوسيوس الثاني التي ألقت الخطب، وكاسية منشدة التراتيل وأيضاً المؤرخة آنا كومينا وأميرات بيت كومنينوس،

وكان هناك طبيات، ولم يذكر إسم مدرسة للبنات، وبنات الطبقات الأرستقارطية يتلقين العلم مع إخوانهن الذكور على يد أساتذة خصوصيين في القصور. أما التعليم عند الطبقات الوسطى فكان مقصوراً على القراءة والكتابة بدون التخصيص.

وكان ثمة اهتمام باللغة اليونانية، وكان البيزنطيون يميلون إلى الاختصار والتنقيح والشروح ووضع علامات الترقيم والفواصل، ولقد إختصرت الألياذة في القرن الخامس عشر مع إضافة المجازات والاستعارات في كل سطر يكتبونه عن هوميروس، ومال اللغويون في بيزنطة إلى التحليل النحوي الدقيق في بعض القطع الأدبية المختارة. وكتب موسخوبوليس معجماً حاوياً لهذه التحاليل النحوية، وكان البيزنطيون يجدون مشقة في دراسة الشعر الأغريقي من حيث النطق حسب النبرة المكتوبة كما كانوا يضطرون إلى تعلم النطق القديم ومعرفة ما في الشعر من إيقاع ووزن وموسيقى وبحور.

في القرن الثامن ضعفت اللاتينية وباتت اليونانية هي لغة بيزنطة بينما كان العكس في روما، ثم حدث في القرن العاشر نهضة في الدراسات اللاتينية واليونانية في روما والقسطنطينية، ولعل مرد ذلك إلى الحروب الصليبية، وكثر في البلاط البيزنطي المترجمين لخدمة السياسة الدبلوماسية للدولة. ووجد في القسطنطينية العديد ممن يجيد العربية والعبرية والأرمنية والصقلبية.

أما علم التاريخ فكان مثار اهتمام الناس كافة، وذلك بسبب حبهم لمعرفة الأمجاد السالفة للإمبراطورية، وكذلك قصة آدم وحواء وحروب طروادة، والشعب البيزنطي دائم الذكر لإنتصارات الأباطرة للقديسيين وخاصة أثناء استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١ وهذا ما فعله أيضاً ميخائيل باليولوجوس أمام أسوار القسطنطينية عندما استعيد جثمان باسيل الأول جلاد البلغار، كذلك قسطنطين الحادي عشر وهو يستعيد أمجاد بيزنطه، وظهر كتاب السير والتراجم التي اهتمت بسير الأباطرة والقديسيين.

بالنسبة للفلسفة التي كانت علماً محبباً إلى قلوب البيزنطيين، فكان رجال الدين يدينون للأفلاطونية الحديثة، ولكن القرنين السابع والثامن قضى على الدراسات الفلسفية وحدثت نهضة في القرن التاسع وهي الإهتمام بفلسفة أرسطو وأفلاطون وابيقور وفي القرن الحادي عشر انتعشت الفلسفة على يد بللوس، واهتم الأمبراطور رومانوس الثالث بفلسفة أفلاطون، وظهر الميل إلى مذهب فيثاغورس والمذهب الروامتي أكثر من المذهب الأرسطي وباتت الفلسفة الإغريقية ضمن مناهج التربية للأفراد، واحتلت فيما بعد دراسة فلسفة العصور الوسطى الكلامية. ولكن رغم ذلك لا نجد لفلاسفة بيزنطه ذلك التألق الذي كان للإغريق. وظل عدم التوقيف بين الفلسفة والعقيدة السلفية الصحيحة أمراً عسيراً.

وبقي اللاهوت علماً خاصاً بالكنيسة، وهو شديد التعقيد، وظهر علماء أمثال يوحنا الدمشقي وفوتيوس وسواهم الذين كانوا على جانب كبير من الدقة وغزارة المعلومات، وكان العلمانيون يتعلمون اللاهوت، كذلك الأباطرة بوصفهم رؤساء الكنيسة، ولكن علمهم لم يكن غزيراً وقد ورّطوا الكنيسة في زندقات بشعة، وكان الأجدر بهم الأعجاب بعلم اللاهوت من بعيد.

وعلم الرياضيات لدى بيزنطة لم يكن يزد عما كان معروفاً لدى الإغريق. واستعمل الاغريق الأحرف الأبجدية بدل الأرقام من غير الطريقة العشرية.

وإذا انتقلنا إلى الهندسة نرى بيزنطة تروي القصص الطوال عن الاستدلال الهندسي ومعرفتهم التي تفوق معرفة العرب مع أن العرب كانوا يهتمون بتلك المادة.

والواقع أن تلميذ الفيلسوف لاوون أذهل علماء بلاط الخليفة المأمون عندما أسر لدى العباسيين. على أن هندسة أقليدس ظلت لديهم كما ظلت لدى العالم كله حتى العصور الحديثة أقصى حد للمعارف الهندسية. وإن ظهرت براعتهم في هندسة فن العمارة وخاصة القباب، والاهتمام بالصرف الصحي وتطوير شبكات المجارير.

بالنسبة لعلم الفلك فلم يتفوق أي عالم على بطليموس، ولطالما حدثت ثورات على نظرية بطليموس، فالملاح الهندي قوزمة قال: "إن الأرض مسطحة مثل غرفة سقفها السماء". واعتقدت أناكومنينا بنظرية الأفلاك الدوارة واتخذتها وسيلة لتفسير هذا العالم مع أنها فكرة أعلنها أناكسيمندر في القرن الخامس ق.م. وكانت معرفة البيزنطيين بالجغرافيا مهمة ولكن لم يبق من خرائطهم إلا خريطة واحدة. وليس عدلاً أن نحكم عليهم من خلال خريطة الفسيفساء المرسومة في القرن السادس التي مثّلت قوادهم واهتمت اناكومنينا بالمعلومات الجغرافية المتعلقة بالرياح والتيارات السائدة وذكرت بأن الكسيوس أمر بصنع خريطة للبحر الأدرياتي، وحاول كومينوس تفسير ظاهرة البرق والرعد بأنهما يحدثان في وقت واحد، وعرّف أكروبوليتا سبب الخسوف والكسوف، مع الخوف دائماً من العقوبات السماوية، واعتبر الكسيوس أن ظهور النجم المذنب يعتمد على بعض الأسباب الطبيعية، إلا أنه رغم ذلك إستشار العرافين عندما ظهرت إحدى المذنّبات بصورة جعلت التفسير الحقيقي لتلك الظاهرة بأنه شيء خُلُقي وليس شيئاً طبيعياً.

أهم حدث قدمته بيزنطة في مجال الكيمياء هو اكتشاف النار الإغريقية، ذلك السائل القابل للاشتعال الذي مكنها من النصر في معاركها. ولكن سر تركيب النار جعلوه سراً دفيناً لدرجة لم يستطيعوا بها تطوير هذا الاختراع.

أما بالنسبة لعلم الميكانيك فكان لديهم فيه تقدم وحرفه، مثل الساعات والأسود التي كانت تزأر والعرش الذي كان يصعد في الهواء.

أما علم الطب فلم يكن مخصصاً لأفراد معينيين، فمثلاً آناكومينا كانت لديها معلومات طبية لا تقل عن المتخصص في هذا المجال. وكان السوداويون (المرضى بالوهم) أمثال الأمبراطور رومانوس الثالث لا يتحركون بدون إستشارة طبيب. ورأى البعض أن الأطباء يوهمون الناس بالمرض ليغتنوا، ومن المحقق أن صحة الأمبراطور تيودور قد تدهورت بسبب فرطه والاهتمام البالغ بعلم الطب. والواقع أن النظرية الطبية لدى أبيقراط والتي تعتمد على تقسيم الأمزجة الأربعة (دم بلغم صفراء سوداء) والدرجات الأربعة (الجاف الرطب الحر البارد) وكل شيء يعتمد على التناسب فيما بينها. واعتمد جميع من ألف في الطب من البيزنطيين على هذه القاعدة، والأغذية يجب أن تراعي هذه القاعدة تجنباً لداء النقرس الذي كان شائعاً في بيزنطة. والعلاج بالكي والإحتجام من الأمور الشائعة وإن لم تؤد الفائدة المرجوّة ولكن بالنسبة للنقرس فإن استخدام التدليك والراحة والدفء مهمة لهذا المرض. وكان الاعتماد على أدوية الأعشاب شائعاً، وتوصي آنا كومنينا بالتمرينات المنتظمة. ولكن الطب البيزنطي يصل إلى أعلى درجاته بالنسبة للمستشفيات حتى المؤسسات الخيرية فيها عنابر للمرضى عالية الكفاية، ومن

أشهر المستشفيات دير الإله القاهر الذي أغدق يوحنا الثاني سنة ١١١٢ عليه الهبات وفيه طاقم طبي من الرجال والنساء والمساعدين والجراحين وأطباء في علم الأمراض والتشخيص.

وكان هناك مستشفيات أصغر شأناً منظمة على هذا النحو، والتمريض يقوم به عادة نزلاء المستشفى الأصحاء، وذلك لأن المستشفيات كانت تلحق بأديرة الرجال أو النساء أو بيوت الفقراء. وكل إنسان أمامه فرصة الدخول إلى المستشفى، وكانت النساء الطبيبات يشتغلن في المستشفيات فقط.

ومن العلوم التي اهتم بها أهل بيزنطة الأدب، والذي ركز على المسائل الأخروية ومسائل الأناشيد الدينية والمؤلفات الصوفية، والواقع أن صعوبات اللغة كا نت تعوق الأدب فاللغة الإغريقية كانت ضمن ثلاث لهجات: الرومية واليونانية إضافة إلى الإغريقية الكلاسيكية القديمة. ولم يكن هناك صعوبات بالنسبة للنثر وكانت قواعد اللغة ومفردات ألفاظها قد ضعفت في القرن السابع ولكن الشعراء اعتمدوا قواعد جديدة للعروض مع مراعاة الأوزان الكلاسيكية.

وأما في عصر النهضة الكلاسيكية في القرن الحادي عشر، أصبحت اللغة الإغريقية الكلاسيكية هي الوسيلة الوحيدة لكتابة الشعر الذي كانت تتجلى فيه العبقرية الأدبية الخلاقة. والشعر البيزنطي

يبتعد عن الابتذال وخاصة (الشعر الديني). إضافة إلى التراتيل، أما النثر فكان أقل معاناة، ولقد كتب باللغة الكلاسيكية اليونانية والقرن السادس شهد اضمحلال اللاهوت، فظهر التاريخ العلماني، وعاد اللاهوت في القرن العاشر واخريات القرن الثاني عشر، وظهر مدون تاريخي لقسطنطين اسمه إدارة الأمبراطورية والمراسم ولكن لا يرقى إلى منزله الأدب. وظهر العديد من المؤرخين ومدوني الأخبار، واشتهر كتاب السير والتراجم وهي خاصة بالاباطرة والقديسين وما أحاط بهم من مذابح بسبب الأيقونات. ووجدت السير المقتضبة من خلال خطب التأبين والسير الذاتية، أما المذكرات فهي قليلة. إضافة إلى المؤلفات النثرية وكتيبات عسكرية قانونية وإدارية، وهناك مؤلفات وصفية عن المنشآت والمباني وكتاب الوطن وهو عن وصف آثار القسطنطينية. ووجد كتاب عن التماثيل، إضافة إلى مؤلفات موسوعية مثل المعجم وأيضاً كتبت العديد من التعقيبات على الآداب الكلاسيكية أو كتاب فوتيوس (دار الكتب).

ولا يوجد للرواية القصصية وجود عند البيزنطي، هناك قصة رومانسية لـ نتياس كتبت بالسريانية في القرن الثاني عشر، وقصة ستيافنتسي التي ترجمها سمعان ست عن العربية وأصلها هندي.

ولكن أوفر فروع الأدب هي الرسائل التي كانت بين البارزين من رجال الحكم أو البطارقة والشعر الديني تتجلى فيه العبقرية الأدبية البيزنطية، أضف إلى ذلك التراتيل وموسيقى التراتيل وشعر

الحكم والأمثال وهناك أشعار البلاط (قصائد الاستجداء) إضافة إلى الملاحم وأهمها ملحمة ديجينيس أكريتاس وأدخلت في عصر النهضة الكلاسيكية في القرن العاشر القصص الرومانسية الغربية إلى بيزنطة وقصص الفروسية، وأدى ذلك إلى بث الوعي الذاتي في الأنشودة الرومانسية البيزنطية، وكانت ثمة محاولة لكتابة القصص الغرامية ذات التفاعيل الشعرية، وظهرت أنماط من الشعر الشعبي وأغاني الحب الرودوسية في القرن الرابع عشر، إضافة إلى الشعر الغربي، والقصص التي كانت تروي سقوط الأمبراطورية وهي مراثي قيلت في القسطنطينية وأثينا وطرابيزون.

إذن الأدب البيزنطي يقف ين الأدب العالمي والمؤلفات اللاهوتية (التراتيل) والمؤلفات التاريخية التي أصبحت أنموذجاً يحتذى في مجال تدوين الأخبار. ولقد حافظ الروس والصقالبة على هذا التراث وأهمية بيزنطة تكمن في محافظتها على الآداب الإغريقية الكلاسكية.

الفن البيزنطي

الفن البيزنطي أصدق مرآة للكيان المركب للحضارة البيزنطية: الأغريقي الروماني والآرامي الإيراني. وعلى العموم هو فن القسطنطينية وهو فن ديني يمثل العصر الذي انتصرت فيه المسيحية، وصار الفن يمجد الدولة والمسيحية. وعندما ظهر القرن الثالث لم يعد للفن الاغريقي أي قدرة على الاستمرار، فالهلينية عملت على مجاراة الطبيعة والجمال، ولكن في القرن الرابع ظهرت موجات فنية شرقية وجاء الفن من الفرس بطابع الجلال والعظمة، وقد مهدت الميثرائية (المزدكية) بفنها الخاص الرمزي الآتي من التركستان، فالتماثيل التي تمثّل دقلديانوس والذي يرسم بصورة بدنية رائعة تميزاً له عن الأفراد من رعيته، صارت ترسم صور الأمبراطور بشكل رمزي يؤكد عظمة روما تجاه البرابرة.

فالصورة التي تمثل السيادة الرومانية لها رمز معنوي وهي صورة لمختلف الأباطرة غير المخلدين.

وهنا ظهرت مشكلة المواءمة بين أصولهم الفنية وضرورات العالم الجديد. ومع ذلك فالروح الهللينية وإن دحرت فإنها بقيت في دم الإغريقي وعلى الفنان البيزنطي في ممارسته للفن الجديد، فالعبادة للأمبراطور لا بد أن تمتاز بالفخامة وعليه أن يعرف قدرة التصرف

بالفسيفساء بدلاً من الإهتمام فقط بالألوان والصباغات في عمله للوحات أو الصور الجصية على الجدران. وشاع استعمال الذهب واستعمل الرخام السماقي مع البرونز الملون أو المموّه بالذهب، ولعبت خيوط الذهب في الأقمشة وهذا الولع بالمواد الثمينة كان حائلاً دون اعتماد الفخامة على ضخامة الشكل فمثلاً كلفة زخرفة كنيسة آية صوفيا ٣٢٠,٠٠٠ رطلاً من الذهب.

أما فن العمارة والهندسة وهنا يظهر سر موازنة القبة فوق مربع وذلك في عمارة الكنائس فالكنيسة تأثرت بفخامة الدولة حيث قاعات العرش فوق الأباطرة أنصاف آلهه. فلم تعد الكنيسة راضية عن بساطتها والواقع أن القباب أعطت للكنيسة نوعاً من الضخامة فإن وضعت فوق وسط قاعة الكنيسة قبة خيلت للناظر بأنها مقسمة من الداخل فيضفي ذلك طابعاً أعظم من الفخامة.

وأعظم الأمثلة للفن المعماري البيزنطي يظهر في كنيسة آية صوفيا والتي باتت المثال المحتذى، ولكن تبع ذلك تطور في طراز البناء المسيحي (الصليب اليوناني) والذي ظهر في البناء اليوناني وكانت الأبواب مربعة والنوافذ مستطيلة أو ذات عقد مقوس فضلاً عن قمرات مستديرة. ومواد الميناء من الطوب الأحمر والحجر المشكل المنحوت والمكسو بزخارف، إضافة إلى الرخام، وظهر فن

النحت على الأبواب وتيجان الأعمدة والنحت المُخرم (التطريزي) وتمت الاستعانة بالتصوير الهللينستى وبالفسيفساء لعمل الأرضيات.

ولقد أثر تحطيم الصور على فن التصوير. واعتمدت الأشكال الهندسية والتصميمات الإنسيابية للأشجار والأوراق، ولم تعد أشكال الأشخاص تصور، وكان نتيجة انتصار عبادة الصور، إعادة الدين إلى حظيرة الفن الهللينستي الآرامي، وظهرت المدرسة المقدونية والمدرسة الكريتية، وظهر الديباج الموشى والنقش بالميناء وأشغال النّل لتطعيم المعادن، بالإضافة إلى الزجاج والخزف البيزنطي.

المصادر العربية

ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٤م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الملقب عز الدين:

- الكامل في التاريخ -١٣ جـ- بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٧م.

إبن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٣٣م) أبو البركات محمد بن أحمد:

كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور ٤ جـ - الطبعة الأولى - القاهـــرة، ١٣١١- ١٣١٤ هـ.

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن محمد:

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر-٧جـ - القاهرة ١٢٨٤هـ.

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠م) أبو يعلي حمزة بن أسد ابن علي بن محمد:

تاريخ أبو يعلي بن القلانسي، المعروف بذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨.

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م) عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين:

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢ جـ - القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ.

أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥ - ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج ابن سرون:

تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠م.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى:

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة-١٤جـ دار الكتب المصرية ١٣٨٣-١٣٩١هـ/١٩٦٣-١٩٧١م.

سعيد بن البطريق: (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م)

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - بيروت ١٩٠٩م.

الطبري (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م) محمد بن جديد.

تاريخ الرسل والملوك - ١٠ جـ - دار المعارف بمصر ١٩٦٧ - ١٩٦٩.

المقريزي (ت ٨٤٥ هـ /١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس أحمد:

٤ حـ السلوك لمعرفة دول الملوك - دار الكتب المصرية ١٩٥٦-١٩٧٢م.

المراجع العربية والمعربة

إبراهيم أحمد العدوي:

- الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - القاهرة ١٩٥١.

- الأمويون والبيزنطيون - القاهرة ١٩٦٣.

أسد رستم:

الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب- ٢جـ - بيروت - دار الكشوف١٩٥٥.

السيد الباز العريني:

الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) القاهرة ١٩٦٠.

جوزيف نسيم يوسف:

العرب والروم واللاتين في الحملة الصليبية الأولى - دار المعارف بمصر - طبعة ثانية ١٩٦٧.

رانسمان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية - ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكي علي - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١.

عبد القادر أحمد اليوسف:

الأمبراطورية البيزنطية – بيروت ١٩٦٦.

عمر كمال توفيق:

– تاريخ الدولة البيزنطية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الاسكندرية ١٩٧٧.

محمود سعيد عمران:

معالم تاريخ الأمبراطوية اليزنطية – بيروت دار النهضة ١٩٨١.

نبيه عاقل:

الأمبراطورية البيزنطية (دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري – دمشق ١٩٦٩.

المصادر والمراجع الأجنبية

- **Baynes, N.H.:** The Byzantine Empire. London 1926, P. 90.
- **Baynes and Moss (Ed.):** Byzantium. Oxford 1948, P. 1-53.
- **Brooks, E.W.:** "the Emperor Zenon and the Isaurians" The English Historical Review (1893), P. 212-216.
- **Bury, J.B.:**

The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London 1911. P. 318, 360, 394.

History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene. 2 vols. London 1899. P. 147.

- **Canard, M.:**

"Les Expeditions des Arabes contre Constantinople Journal Asiatique CCVIII (1926), P. 80-12.

- **Charanis, P.:** Church and State in the Later Roman Empire. Madison, Wisconsin 1930, P. 50.
- **Diehl, Charles.:**

Justinien et la civilisation byzantine au Vie siècle - Paris 1901. Leo III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval History IV, P. 137, 333, 381, 311, 248.

"L'Origine du régime des thèmes dans l'empire byzantin: Etudes Byzantines. Paris 1905, P. 279.

Histoire de L'Empire Byzantin. Paris 1930, P. 69.

- **Ggwatkin, H. M.:** Studies on Arianism. Cambridge 1900, P. 57.

- **Holmes. W. G.:** The Age of Justinian and Theodora 2 vols London 1912, P. 489, 526.

- **Kantarowiez, E.:** "Feudalism in Byzantine Empire". Feudalism in History Ed. Coulborn - Princeton 1956. P. 157-126.

- **Maurice, J.:** Constantin le Grand. L'Origine de la civilisation chrétienne. Paris 1925. P. 282-292.

- **Oman, C.:**

- The Byzantine Empire. London 1924, P. 191.

- **Ostrogorosky, G.:** History of the Byzantine State. Trans. Joan Hussey. Oxford 1956, P. 27-63-30-4, 44, 69, 124.

- **Vasiliev, A.:** The Byzantine Empire. Madison 1952, P. 2-26, 144, 170.

محتويات الدراسة

* القسطنطينية (الموقع والمكانة).

* المجتمع البيزنطي (السكان - الطبقة الارستقراطية - طبقة رجال الدين - المرأة البيزنطية - طبقة الفقراء - طبقة الرقيق - الطبقة الوسطى - طبقة الخصيان - طبقة التجار - الألبسة البيزنطية - الحياة اليومية في بيزنطة - صفات المجتمع البيزنطي).

* الأوضاع الدينية في بيزنطة (المذاهب المسيحية - عبادة الصور المقدسة)

* التنظيمات العسكرية في بيزنطة (الجيش - الأسطول - الدبلوماسية - نظام الثغور أو الأجناد).

* النظام الإداري في بيزنطة (الألقاب - الولايات - البلاط - الضرائب والنفقات).

* القوانين والتشريعات البيزنطية (قانون دقلديانوس - قانون جستنيان - الباسيليكا - الإكلوجا - المتجددات).

* الأوضاع الاقتصادية في بيزنطة (التجارة - الأسواق والنقابات - الأرض).

* العلوم عند البيزنطيين (تعليم البنات - العلوم الانسانية والبحتة).

* الفن البيزنطي.

